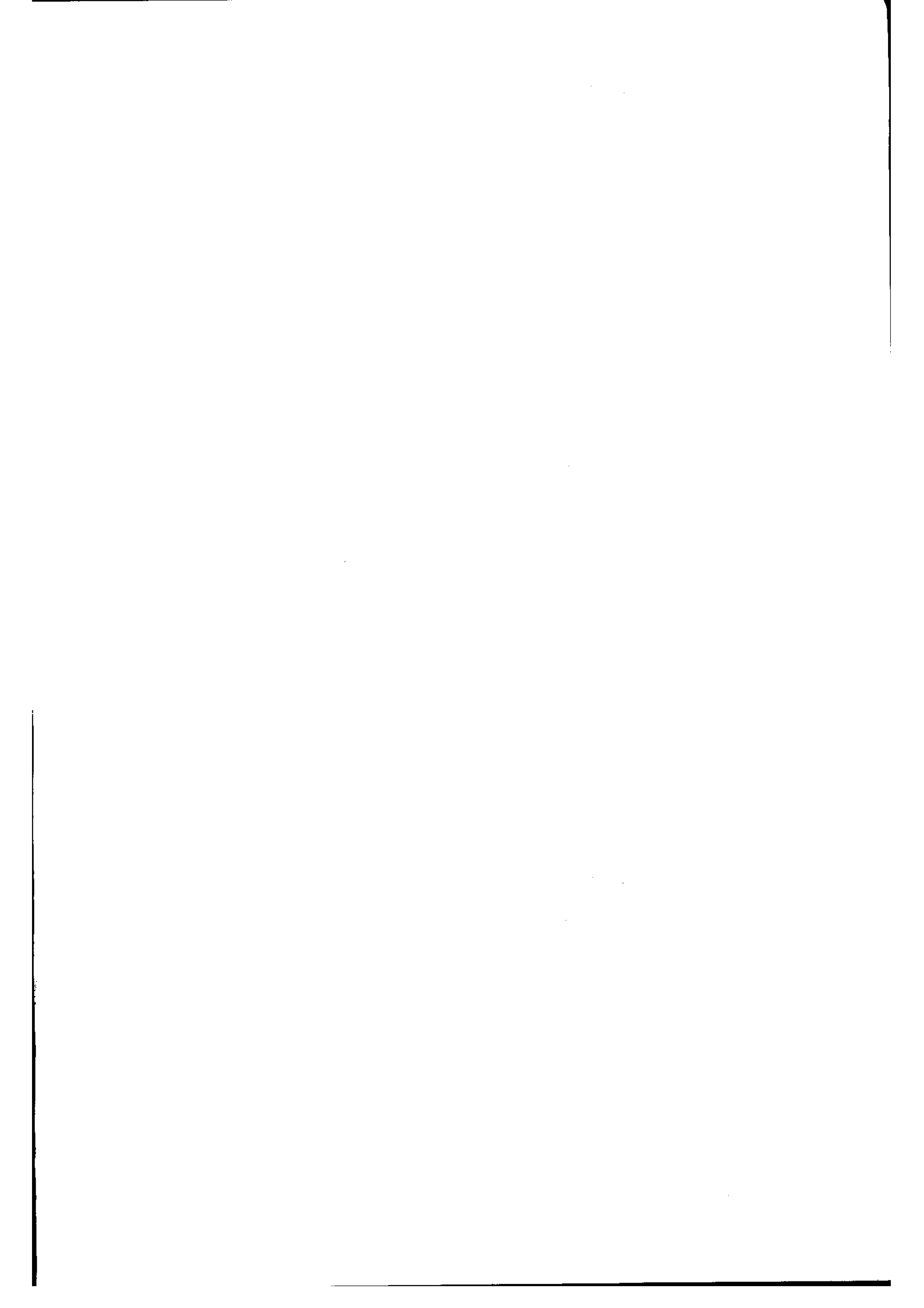
# مقدمة في تاريخ الأدب العربي

## دراسة فى بنية العقل العربى



# مُقَدِّمَة في تاريخ الأُدَبِ العَرَبي

## دراسة في بنية العقل العربي

د. سُليمان العطّار

الدار الثقافية للنشر

عنوان الكتاب : مقدمة فى تاريخ الأدب العربى
تألــــيف : د . سليمان العطار
14 x 21 سم . 192 ص .
رقم الإيداع بدار الكتب المصرية : 2002/3625
اسم الناشر : الدار الثقافية للنشر

Moqadima fi Tariekh Al- Adab Al- Arabi
D. Soliman Al-Atar
14 x 21 cm. 192 p.
ISBN: 977 - 339 - 085 - 3

الطبعة الأولى

1423 هـ/ 2002 م



الدار الثقافية للنشر - القاهرة
ص.ب 134 بانوراما اكتوبر 11811 - تليفاكس 4035694 - 4172769
Email: nassar@hotmail.com

# بنية العقل العربى
# بين الشرق والغرب



بسم الله الرحمن الرحيم

# مدخل

عندما نشرت عام ١٩٩١ كتابى «مقدمة منهجية لدراسة تاريخ الأدب العربى» كنت مدفوعًا لتقديمه بين أبحاث الترقية التى أدركت التقدم إليها بعد لأى بيروقراطى، وكان مكتوبا منذ فترة ولم ينشر على أمل أن أقدم له بنظرية مفتوحة للتعمق ومزيد من الدراسة والفهم وإلقاء الضوء على آلية عمل وتشكيل كل من العقل الشرقى فى نموذجه العربى (الجنوب صحراوى) والعقل الغربى أو الشمالى (فى نموذجه الغرب أوربى). وذلك لإلقاء أضواء تفسر كثيرا نمط الارتجال العربى موضوع الكتاب المذكور عاليه، وهو محاولة لفهم العقل العربى عبر الأدب، وفهم الأدب فى ضوء بنية ذلك العقل.

وها أنذا أقدم تلك النظرية التى تكشف عن أهمية الجغرافيا عبر آلاف السنين فى تشكيل البرنامج الأساسى لجهاز أى عقل، وهذه المرة أخطها تحت رغبة صديقى عمر الصاوى. ولولا هذا الدفع النبيل من جانبه ما خرج هذا المشروع إلى النور، فلا أعرف كيف أشكره. وبين هذا الدفع فى الكتابة وذاك الدافع السابق فى نشر المكتوب: (عشر سنين) عجاف أو سمان، وقعت فيهما أحداث

مذهلة فى العالم لا يكاد يصدقها العقل حتى الآن، والمدهش أنه مع ذلك ورغم اتساع المدى بين التاريخين فما زال الكتاب صالحًا، وما زالت مفاهيم النظرية التى سترد فى السطور القادمة قادرة على تفسير الكثير مما أورده كتاب (مقدمة نظرية) المشار إليه، والأهم تفسير وقائع حياتنا: لماذا يتغير العالم ونحن لا نتغير؟ فما زلت - كمثال - تحت دافع خارجى فى الآخرة كما كنت فى الأولى، أو لماذا يتقدم العالم، ونحن لا نفعل؟ فما زلنا نعمل بحوافز طارئة وعشوائية، وليس فى ضوء تخطيط يجعل المستقبل مشروعا دائما قابلا للتنفيذ الدائب المستديم. والسؤال: هل نريد التغير حقا نحو الأفضل؟ وهل نريد التقدم الذى يحمل الكثير من احتمالات الراحة الفيزيقية والروحية فى ظل مجتمع حديث للرفاهة والرخاء وتزايد قيمة الإنسان الفرد وحفظ كامل حقوقه؟ لا أشك فى أننا نريد ذلك. ولتحقيق الإرادة ينبغى فهم المراد، وما يعترضه من عقبات.

إن هذا العمل محاولة لفهم أسباب التجمد وحوائل التغير والتقدم، ولنبدأ بتحديدات لبعض المفاهيم.

**أ - تحديدات:**

المصطلحان الشرق والغرب يتم استخدامهما بشكل متواتر وتقليدى، بمفاهيم متسعة، مما يدفعنا إلى الإحساس بضرورة إعادة تحديدهما، أو ربما الاستغناء عنهما بمصطلحين جديدين.

والشائع استخدام هذين المصطلحين للإشارة إلى حضارتين إحداهما يطلق عليها الحضارة الغربية، والأخرى تسمى الحضارة الشرقية: الأولى يغلب عليها الطابع المادى، مستوردة للأديان بعد تعديلها على مقاسها، والثانية موسومة بالطابع الروحى، منتجة للأديان، مفسرة لها أيضًا على مقاسها.

لكن، أين الوجود الفيزيقى لكل من الحضارتين؟ وما هى حدوده إذا كان له حدود؟ الفضاء الفيزيقى للشرق يغمر جنوب الكوكب المعروف بالعالم القديم (قبل اكتشاف الأمريكتين، ودون أى اعتبار للجزء الزنجى من القارة الإفريقية، وكأنه لم يكن ولم يوجد)، وحدود هذا الجنوب تهتز دائمًا بهجرة يغلب عليها اتجاه: الجنوب ← شمال، والشرق ← غرب (وهناك بعض الاستثناءات الهامة على مستوى القارة الأوربية فى العصور الوسطى - وربما قبل ذلك أيضًا - حيث تمت هجرات واسعة نحو الجنوب الأوربى، وربما طالت الشمال الإفريقى باعتباره جنوب الجنوب الأوربى، وقد أدى هذا الاتجاه المعكوس للهجرة إلى «تشميل» الجنوب، أى فرض نظم عقلية شمالية عليه. كذلك ظلت الهجرة شرق ← غرب حتى العصر الحديث، حيث اقتصر هذا الاتجاه على الهجرة نحو الأمريكتين، وتحول ليصير هجرة استعمارية: غرب ← شرق، (فيما كان يسمى بالعالم القديم).

وهكذا فالفضاء الفيزيقى للغرب هو الشمال (المائل دائمًا نحو الغرب)، وللشرق هو الجنوب (المائل دائمًا لبندوليةشرق - غرب)،

دون نسيان اهتزاز هذا الفضاء بالهجرة، التى لا نقصد بها الهجرة الديموغرافية فحسب، ولكن نقصد بها أى حركة ذات اتجاه، مثل عبور الأفكار، والفنون، والصنائع، والبضائع، والأمراض، والرياح والأعاصير، والتكنولوجيا، والجيوش الغازية. . . إلخ.

والسؤال: لماذا يكون الشرق والغرب مختلفين مصيرا فى ابتعاد شاسع إلى حد القرب؟ فالأطراف تتلاقى.

## ب - البرمجة المتبادلة

الجغرافيا (أو ما يطلقون عليه الطبيعة) والرجل وجدا دائمًا متواجهين متعادين فى ودّ ووئام لا يخلو من صراع وانفصام. الجنوب (أو ما أطلق عليه الشرق فى العالم القديم) فى أفقه العربى يتشكل من صحراء واسعة مرادفة لمناخ حار جاف نهاراً، بارد رطب ليلا: نهار فى غاية القسوة، وليل مخوف. كل نقاط الفضاء متشابهة ومتوافقة، وكلما تقدم النهار يتقدم أيضًا الأفق والسراب. لا شىء مستقر أو دائم، ولا حتى الأرض التى يتم وطؤها: تلك الرمال، أو قل تلك الحبيبات الصغيرة (الخشنة تارة والناعمة أخرى)، لكن الصلبة جيدة الانفصال الفيزيقى عن بعضها، والالتئام فيما بينها فى انجذاب يخلق مهدا يوطأ، لكنه أقل قليلا فى السيولة من السائل السحرى: الماء. حتى الشمس لا تستقر، فأشعتها تسقط على الأرض الرملية، وتراق عليها لتعود فى ميلاد جديد، وتنعكس فى اتجاهات بغير اتجاه يجمعها: تيار من الخطوط المستقيمة الدائمة لأشعة منتشرة

فى كل صوب وحدب، تحاول الصعود اللولبى نحو السماء خالقة لمعانا غير قابل للإمساك به، يقف على مرمى البصر إذا وقفنا، ويسير إن سرنا محتفظًا فى إبداع بالمسافة نفسها التى تفصلنا عنه، وهو إذ يقدم لنا هذه الرؤية الأفقية لا يتوقف عن الصعود، ربما فى بحث عن جذوره، مسافرا طول النهار كى يروى الفضاء بوهم يطلق عليه ريق الشمس، وكى يطلق من تلك الأرض المظلمة المقدسة شرارات نور نجمية.

هذه الأرض تظل متعطشة منتظرة بعض الماء هنا وهناك ليتفجر من رحمها الخصب المكبوت حشائش كلأ وحياة، تعطى الأرض مظهراً فى لون سماء النهار المروى بريق الشمس المسمى السراب: الماء حياة للأرض والسراب حلم بالماء لا يغادر ساكن الصحراء طول نهاره، حتى أنه يعشب فى السماء مشهداً مستحيلا يدرك من يراه أن مشاهدة الجمال هى أقسى معاناة. أليست هكذا الحياة فى الصحراء؟

وكما تتشرب الأرض ماء المطر القليل فتنجم الحياة والعشب، فإنها أحيانا تعيده على هيئة بئر أو ينبوع يتفجر منه ذلك الماء. كذلك السماء التى تبتلع السراب المتصاعد فى أجوائها منبتا نجوما فى عزِّ النهار، قد ترسله فى كثير من الليالى سائلا فضيا اسمه ضوء القمر، وربما ليلا أو نهاراً فى صورة شاعرية لسحابة توقظ الأمل مرة، وتحققه أخرى ببعض قطرات من المطر.

هذا المشهد الجنوبى يمتد من الخليج الفارسى (أو العربى) وحتى ساحل الأطلنطى ومن خط ممتد من حدود العراق مع تركيا حتى الساحل الجنوبى للبحر المتوسط يوازيه خط جنوبى يفصل الشمال

الإفريقى عن الجزء الزنجى من القارة، إنه مستطيل شاسع هائل يسمى الصحراء الكبرى والجنوب فى أفقه غير العربى به مشاهد أخرى غير صحراوية مثل مشهد شبه القارة الهندية أو أرخبيل أندونيسيا أو قارة الصين أو جزر اليابان وسنغافورة . . . إلخ . لكننا سوف نركز على مشهد الصحراء الكبرى، وهو - على فداحة الفروق الجغرافية بينه وبين مشاهد الجنوب المختلفة - جزء هام جدا من هذا الجنوب، والذى أنتج أنماطا متعددة من الحضارات ذات الميول الروحية الغالبة، وذات البنى المتشابهة فى تضادها ومقابلتها للحضارات ذات الميول المادية التى أنتجها الغرب .

وهكذا الوصول إلى بنية عقلية لسكان الصحراء مع أسلوب حياة ورؤية محددة للعالم سوف يكون مرشدا لمن يشاء بعد ذلك فى اكتشاف بنى عقلية وأساليب حياة ورؤى محددة للعالم فى باقى مشاهد الجنوب كى نرى المشترك فيما بينها وقانونها العام مقابل القانون العام للشمال، أو بمعنى آخر كشف قانون للشرق يقابل قانون الغرب طبقا لتسمية كل من الجنوب والشمال الآن .

إن خصائص مميزة للحياة فى صحراء الجنوب تبلورت كثمرة لآلاف السنين من التعايش بين الإنسان والجغرافيا، التى أنجزت برمجة عقل هذا الإنسان على مستوى فردى واجتماعى، ليصير برنامجها أساسا لبنية عقلية تقبل ما يقبله ذلك البرنامج الأساسى وترفض ما يرفضه . هذا البرنامج الأساسى الذى ساد كعامل محدد لتطور ونمو البنية العقلية لساكن الصحراء الكبرى دفع هذا الساكن إلى

التعامل مع جغرافيته ومع نفسه ومع الآخر بطريقة محددة، فتغيرت الجغرافيا فى حدود ما سمح به البرنامج، وفى حدود قابلية تلك الجغرافيا للتغير نحو حياة حضرية حول نهر أو أرض مطيرة أو كثيرة الينابيع (مثل الطائف والمدينة واليمن) أو نحو حياة بدوية جائلة تبحث عن مواقع حضرية للسطو عليها أو غزوها من ناحية، وعن مصادر للمياه، حيثما كانت، من ناحية أخرى.

وقد تشكلت صورة الفرد على صورة أفراد عناصر الجغرافيا: وحدات متكررة، كما يقول أبو العلاء المعرى:

(١) تشابهت الأشياء طبعا وصورة

وربك لم يسمع له بشبيه

وإن الفتى فيما أرى بزمانه

لأشبه منه شيمة بأبيه

لكن من (أبيه) هذا؟ يقول نفس الشاعر:

(٢) ووالدنا هذا التراب ولم يزل

أبَرَّ يداً من كل منتسبيه

(٣) يؤدى إلى من فوقه رزق ربه

أمينا ويعطى الصون محتجبيه

ويقول:

(٤) أليس أبوكـــــم آدم إن عُـــزيتُم

يكون سـليــلا لـلتــراب إذا عُـــزى

والتراب هو الرمل اختلط بالماء وبقايا النبت والحيوان يتكون أيضًا من حبات تنفصل إذا جف وسُحق، بعد أن اتصلت إذا بلّ وجفف. إنها دورة صحراوية للحياة تجلتَ بقوة فى الأديان الثلاثة التى نسميها الأديان السمـاوية، والتى تخـاطب مـا كـان إنسـانًا بعـد مـوته: «من التراب جئت وإلى التراب تعود».

فالفرد - إذن - ذرة تراب أو حبة رمل، أو حشيشة ناجمة أو نجمة تتكرر فى غزارة مذهلة فى سمـاء ليل الصحراء تكرر حبات رمال أرضهـا. وحيـاة ذلك الفرد تكرار لحيـوات مـضت أو سوف تمضى متلاشية، بل إن نفسه مخلوقة من نفس ميتة ثاوية تحت الأرض:

(٥) وتَقْدُمُ الأرضَ نفــــــوسٌ أتت

مـــــخلـوقـــــة مـن أنفُسٍ ثاويـة

(٦) والدهر كـالحـيوات والحـوت فى

إهلاكـــــه مـــا حـــوت الحـــاوية

(٧) إن تعـمُـــر الـــدار فــلا بد، من

يوم، ردىً يـتـــركـــهـــا خـــاوية

وكمـا أن الأشيـاء متشابهة فكل الحيوات الحالية تكرار لحيوات مضت لتصير الحالية مستقبلا ماضية ثاوية أمّا لحيوات قادمة:

(٨) وثريا الـنجــوم تلقى حــمــامــا

كــالثــريا فـى رهطهــا القــرشــيــة

وأيضًا :

(٩) تلتــقى فى الصــعـيــد أمٌّ وبنت

وتســاوى القــرناء والجــمــاء

(١٠) وأنيق الربيع يدركــــه القيْــ

ـظُ وفــيــه البـيــضـاء والسَّخْـمـاء

وحبّات الرمل تلك فى انفصالها الأبدى قد تولد أصلا متماسكة فى شكل جبال وتلال رواسى لتثبت الأرض أن تميد بساكنيها، وتبتلع كل ما عليها، وهذه الفكرة عن وظيفة الجبال ثابتة فى النص القرآنى المقدس. وإذا كانت تلك وظيفة الرمال المتجمعة، فمن يعطى ثباتا وأمنا للأفراد الصحراويين فى تكررهم وتماثلهم، وخوفهم من ليل كل شيء فى ظلامه طليق ابتداءً بالرياح وانتهاء بالوحوش، ومرورا بالهوام وأفراد من البشر تهيم بجوعها وعطشها للسطو على من لديه طعام وشراب؟ لا شك أنه التجمع التلقائى حول ماء لأفراد يظنون بوحدة النسب والانتساب تحت مسمى قبيلة، أو أى مسمى آخر يصلح لنوعية الجماعة ونوعية الماء.

فالتجمع يحقق الأمن والثبات، لكن حافزه وسر وجوده هو الماء، والماء فى الصحراء قصير العمر يجف ويزول، ونادر يُتقاتل عليه،

وتفاجأ الجماعة حوله بمن يحاول اغتصاب مائها فتشرع فى الذود عن الحيـاض، ويصبح حوض الماء أو حياض الماء هى رمز الوطن والوجود، لكن إن لم ينجح الأعداء فى اغتصابها تجف، فيختف الوطن، ويتعرض الوجود للخطر، وللذود عن الوجود يتم الرحيلَ والتجوال بحثًا عن ماء بلا صاحب، أو اغتصاب ماء من صاحبه أو التحالف معه باقتسام الماء نظير الدفاع عنه، والمشاركة فى الغارة على الآخرين. إن الرحيل عن الماء لعنة تفرض دائمًا العَرَبَةَ والتجوال، وتملأ الصحراء ببقايا حيوات وقرى ماتت بموت الماء، ويشبه البدوى فى تجواله شهابا فى السماء:

**(١١) سبحان خالق هذه الشهب دائبة**

**سارت وأسرت فلا أينًا، ولا وسنا[١]**

وعندما يجف البئر قطرة وراء قطرة، ويوما بعد يوم فى عملية احتضار طويلة لذلك البئر وللحياة من حوله، يبدو وكأنه يسافر محمولا بزمان دائب الحركة منذ ميلاده وحتى جفافه أو قل موته. إن كل قطرة مثل شعاع غارب فى موت صغير وراء موت صغير آخر، هكذا أبدا ليصير حاصل الجمع الموت الكبير النهائى. إنه صحراء أخرى مليئة بالوحدات المتماثلة المتوالية من قطرات الجفاف أو شعاعات الموت الأصغر، تلك صورة موت البئر يراها شعراء العربية (وهم حكماؤها أيضًا) نفس صورة حياة كل فرد منهم ومن الناس:

**(١٢) فلو أنها نفس تموت جميعة**

**ولكنها نفس تساقط أنفسا[٢]**

وقد تفنى الحياة فى التنقل من ماء إلى ماء:

(١٣) عـــجــبت لــمَّــا رأتْـنـــــى
أنـدب الـربَّـع المحــــــيــــــلا

(١٤) واقـــــفـــــا فى الـدار أبكـى
لا أرى إلا الـطـــــــــــــلـولا

(١٥) كـــيـف تبـكى لأنـــــاس
لا يمـلـون الـذَّمـــــــيـــــــلا

(١٦) كلمـا قلـت اطمـــــــأنت
دارهـم، قـــالـوا الرحـــيـــــلا

ولنفس الشاعر (عمر بن أبى ربيعة):

(١٧) قلت سـيرا ولا تقـيمـا ببصـرى
وحــفــيــر فـمـــا أحب حــفــيــرا

(١٨) وإذا مــــــررتما بمعـــــانٍ
فـــأقـــلا الـثـــواء وســـيـــرا

(١٩) إنما قصرنا إذا حسّر السـيـــ
ـر بعـيــر أن نـســتـجـد بعـيــرا

لكن من هما هذان الصاحبان اللذان يحملان القائل لهذه الأبيات؟ إنهما الجديدان، الليل والنهار. إذن الوجود كله فى رحلة يحمله فيها الزمان القادر المقتدر، لكن الوجود والرحلة والزمان جميعا يُبَعْثَرون فى وحدات صغيرة متكررة تخرج من الرمل والتراب وتعود إليه دوما دون توقف. إن الحياة هكذا مثل تيار كهربائى متقطع، أو هى دقات متوالية لقلب أو لساعة. تسير هكذا فى خط سير رأسى من نُقط، أولها المولد، وآخرها الموت فى حياة كل فرد، لكن حياة كل فرد جَميعها نقطة أخرى فى سلسال من التراب إلى آدم (أو أصل كل نوع) إلى لحظة راهنة. تكرار ووحدات منفصلة تتصل بالتوالى. نكاد نرى هذه الوحدات تُسوّر دائرة أومربع سطح مسجد وسيط (أو حديث) على هيئة مثلثات متساوية فى خط أفقى له ديمومة وتواصل محيط دائرة لا أول له ولا آخر. إن تكرار الموتيفات فى الفن الإسلامى وتشظيها وتوالدها يصور هذه الرؤية المنبثقة من واقع جغرافى بالغ القسوة متجدد الفناء.

**ج - قانون المماثلة**

وعقل الجنوب (فى نمطه الصحراوى هذا) مضى يتشكل فى بطء عبر مئات (بل آلاف السنين)، كى يصل إلى رؤية للعالم الخارجى الذى يحيط به، كعالم سائب (غير متماسك)، متحرك (مثل الرمال المتحركة أو الكثبان)، يبتلع نفسه أو يفنى نفسه دون أن يفنيها:

**(٢٠) فتوضح فالمقراة لم يعف رسمها**
**لما نسجته من جنوب وشمأل**[٢]

رياح تغطى المكان بالرمال ، فتأتى الرياح المقابلة لها فتمحو الرمال التى غطته فتكشفه ليعود إلى الغطاء ، هكذا أبدا فى نفس التيار المتقطع . الوحدات المتكررة التى يتكون منها ذلك العالم فى ألف من التجليات والأشكال أمثال . والأمثال أضداد كما يقول ابن عربى لأن قولنا أن «هذا» مثل «ذاك» ، يعنى أنه مغاير له ، وأنه ليس هو هو . ومع هذا التقابل للأمثال من الوحدات المتكررة ، فإن التميز الفردى لا يكاد يبين ، وهو تميز سيكولوجى :

**(٢١) ويقسَمُ حَظُّ النفس شرقا ومغربا**

**على قـــدرٍ من خامل ونبيه[١]**

فنحن أمام نسخ متشابهة ظاهريا ، مختلفة داخليا لكن فى حدود برامج تبث إليها محدودة . لكن عموما فإن كلية الأشياء وجملتها النهائية فى مجموعها غير مرئية ، وغير معروفة ، فقط تعرف بقانون المشابهة أو المماثلة ، فالوحدات المتكررة ، تشكل كونا تماسكه ناجم عن عدم تماسكه :

**(٢٢) وفى كل شىء لـــه آية**

**تدل على أنه الواحـــد[٣]**

إن تلك الآية هى تماثل كل شىء فى شىء هو تلك الآية الثابتة فى كل موجود (وحدة منفصلة)تشير إلى وحدة الخالق (راجع بيت الشعر رقم واحد) وأنه لا شبيه له .

ومع ذلك فقانون المماثلة ليس قانونا متماسكا يقوم على نظام

منتظم، بل الأدق فهو جماع مجموعة من القوانين الجزئية التى تتضام فى عملية نسج لا تفتأ قائمة دون توقف لقانون التماثل العام الملغز والغامض والذى هو فى الأول والآخر صفة لله نفسه (جلَّ عن أن يوصف). ويكرر المتصوفة بأن الله عرف بجمعه بين الأضداد، والأضداد أمثال والأمثال أضداد «وليس كمثله شىء» أى ليس مِثْلَ مِثْله شىء، ومثل المثل هو الجمع بين الأضداد، فهو الغفور وَهو المَنتقَم، وهو الودود والجبار معا. أى غموض! وأى إلغاز! لكن أى عمق روحى وجمالى!

وفى ظل هذا الجو الذى يخلقه قانون المماثلة يتحول كل ما هو فيزيقى إلى ميتافيزقى، ويتحول كل ما هو ميتافيزيقى إلى فيزيقى. إن الفيزيقى يتلاشى ويتبخر فى تكرر الأمثال، فتصير الصحراء ملاءة لا نهائية ذهبية (فى تموج) نهاراً، سوداء ليلا، لا تمييز بين مكان ومكان فى بعثرة المتضام، وتضام المبعثر (تأمل كمثال حركة كثيب رملى أو الأمواج التى ترسمها الرياح على سطح الصحراء): الشمس تراق على هيئة أشعة، تتجمع فى نفس قرص الشمس قادمة منه مبعثرة ليعود السراب إلى بعثرتها فى اتجاه تجمعها، والنجوم نفسها تتحد فى ضوء الشمس عندما تختفى من ملاءة السماء نهارا. وشيخ القبيلة هو الشمس بل هو بئر الماء، الذى يتوزع فى كل أفراد القبيلة الذين يتجمعون فى شخصه. الكل فى واحد والواحد فى الكل. إن حركة الروح ذهابا وإيابا تتوزع فى وحدات (أفراد القبيلة)، وتتجمع فى روح أكبر (شيخ القبيلة). إنها حركة دائبة.

## د - مركزية العالم

لكن هذا الشيخ «الكل» له جانبان أحدهما غير مرئى (سماوى)، وآخر مرئى (أرضى). شيخ القبيلة هو تجسيم لأرواح الأسلاف، وفيه يكمن سر قانون المماثلة عن طريق محافظته على الأعراف والدين والأمثال والأقوال المأثورة التى تنقل الرؤية العميقة للماثلة، فكل أبناء القبيلة أمام شيخ القبيلة سواء، لكنهم رقم متكرر يمكن جمعه حسابيا. أيضًا كل حادث أو واقعة يماثل حادثًا سبق أو واقعة فى أرشيف القبيلة الشفوى، ولكل فعل يستقبل صورة قديمة يتحدد رد فعل لها أيضًا قديم ومعروف. الأشياء تكرر بعضها: لا جديد تحت الشمس. إن كل هذه القوانين الجزئية التى تحمل بشكل ضبابى فى مجموعها صورة قانون التماثل هى إرث شيخ القبيلة ومسئوليته. لكنه قبل كل ذلك رجل لا ينفى جانبه السماوى جانبه البشرى، لكن عليه أن يخفيه بقدر ما يستطيع، وكل فرد لا يحاول أن يراه بقدر ما يستطيع حتى يعمل قانون المماثلة، ويمارس الشيخ دور ظل الله فى الأرض أو الخلافة عن الله (وهى غير خلافة الرسول، والتى كانت أكثر اتساعا ورسوخًا فى التفويض الإلهى - إذا صح التعبير - من خلافة شيخ القبيلة)، وهذه الخلافة تفترض رؤية للعالم تقوم على الإطلاق والقدرية والحتمية.

كل فرد يموت، يتلاشى، يحتضر كى يختفى أو يتلاشى. الشىء الخالد هو المماثلة، مماثلة القادم للماضى، ومماثلة الحى للميت حين كان حيا. كل شىء من تراب وإلى تراب. . تلك هى بعض المماثلة،

لكن التراب يأخذ شكل شخص حى بما نفخ فيه من روح الله، فالأفراد تفنى ولا يبقى إلا الله، يعرف إما عن طريق قانون المماثلة، أو استمرار العِرْق ممثلا فى شيخ القبيلة (السلطان عموما).

وتتمثل علاقة أعضاء القبيلة بشيخهم بالمحاكاة الحرفية لعلاقتهم بالماء الذى يجمعهم، فالماء مركز يلتئمون حوله فى دائرة وهمية، ويتوزع عليهم وفيهم بالعدل طبقا للأعراف ودورية فى الورود والصدور، والماء يمنحهم الحياة، ويذودون عنه (عن الحياض) مضحين بتلك الحياة نفسها. لكن من يوزع عليهم الماء؟ من يضمن العدل؟ من يعطيهم إحساسا بالرشاد والأمان؟ إنه شيخ القبيلة، الذى يصير رمزا للحياض هو والماء صورتان متطابقتان، وهو أيضًا صورة للشمس والقمر، وفوق ذلك للبحر يتبخر ماءً فى سحابات (قبيلته)، يعود إليها مطرا (الواحد فى الكل، والكل فى الواحد).

إذن حين يمدح السلطان بأنه شمس أو قمر أو نهر أو بحر، أو ندى أو مطر، فالشعراء لا يبالغون فهو سيد الماء وهو (القمران)، وهو الينبوع والندى والنهر والبحر.. ذلك واقع رمزى يعيشه العربى، فهو والماء مركز للوجود الاجتماعى، وها هو الشيخ محمد بن الوليد الطرطوشى أحد القلائل فى تراثنا الفكرى ممن تحدثوا عن الحاكم والمحكوم والحكومة يقول فى كتابه سراج الملوك بين أقوال كثيرة تحملنا إلى مركزية السلطات ورمزيته المائية الكونية: «قالت حكماء العرب والعجم مثل مضار السلطان فى جنب منافعه مثل الذى هو سقيا الله تعالى وبركات السماء وحياة الأرض ومن عليها. وقد

يتأذى به المسافر ويتداعى البنيان وتكون فيه الصواعق وتدر سيوله فيهلك الناس والدواب والذخائر ويموج له البحر فتشتد بليته على أهله، فلا يمنع ذلك الخلق إذا نظروا إلى آثار رحمة الله فى الأرض التى أحيا والنبات الذى أخرج والرزق الذى بسط، والرحمة التى نشر، أن يعظموا نعمة ربهم ويشكروها، ويلغوا الأذية التى دخلت على خواص الخلق»[٤] .

لا يكتفى بذلك الطرطوشى شيخ ابن خلدون بل بعد تشبيه السلطان بالغيث يقوم بتشبيه آخر قريب: «ومثاله أيضًا مثال الرياح التى يرسلها تعالى نشرا بين يدى رحمته فيسوق بها السحاب ويجعلها لقاحا للثمرات ورواحا للعباد يتنسمون منها ويتقلبون فيها وتجرى بها مياههم، وتقد بها نيرانهم، وتسير بها فى البحر أفلاكهم، وقد تضر بكثير من الناس فى برهم وبحرهم. وتخلص إلى أنفسهم فيشكرها الشاكرون، وقد يتأذى بها كثير من الناس فلا يزيلها ذلك عن منزلتها من قوام عباده وتمام نعمته»[٤] .

ثم يستمر الطرطوشى «ومثاله أيضًا مثل الشتاء والصيف. . ومثاله أيضًا مثال الليل. . ومثاله أيضًا مثال النهار. . . »[٤] ، وينهى قوله باعتبار السلطان شيئًا جسيمًا يشبه كل عناصر الطبيعة فى الصحراء: «وهكذا كل جسيم من أمور الدنيا يكون ضرره خاصًا، ونفعه عاما، فهو نعمة عامة، وكل شيء يكون نفعه خاصًا فهو بلاء عام، فلو كانت نعم الله صفوا من غير كدر، وميسورها من غير معسور لكانت الدنيا هى الجنة التى لا نصب فيها ولا تعب وقد قال الشاعر:

(٢٣) لا ترجو شيئًا خالصًا نفعه

فالغيث لا يخلو من العبث[٤]

ومادام السلطان مركز كل نفع عام، ومركز الرعية أو القبيلة، «فحق على جميع الورى أن يمدوا السلطان بالمناصحات ويخصوه بالدعوات ويعينوه فى سائر المحاولات ويكونوا له أعينا ناظرة وأيدى باطشة وجُنَّة واقية وألسنة ناطقة وقوادم تنهضه. . .»[٥]، وتستمر المشابهات فهو بمنزلة الروح من الجسد، وهو مثل النار والخلق مثل الخشب ما كان منها معتدلا لا يحتاج للنار، وما كان منآدا احتاجها. . ومثاله مثل ماء عين.»[٦]. وهكذا تتأكد مركزية الرؤية فالسلطان والماء نقطتان متطابقتان فى نقطة واحدة هى مركز دائرة الوجود. ومن المركز تتجه أنصاف أقطار نحو المحيط توزع السلطان على الرعية فى اتجاه وفى الاتجاه العكسى يصير الكل فى الواحد المركزى. يقول الطرطوشى: «أفضل الملوك من كان شركة بين الرعايا لكل واحد منهم فيه قسطه»[٧]. والسلطان فى جانبه السماوى والسامى لا يحتاج إلى أحد إلا قليلا: «بالرعية من الحاجة إلى الراعى ما ليس بالراعى من الحاجة إليهم. . لولا الرعاة هلكت الرعية. .»[٨].

ولعل فكرة الرؤية لعوالم تتجمع حول مركز، كل عالم مكون من وحدات متماثلة (أو متقابلة) تدور فى محيط حول المركز، هى فكرة تسير فى اتجاهين متضادين، فالمركز قد يجذب نحوه المحيط أو يطرده، وتلك ملاحظات ارتبطت بنظريات فيزيقية (نعرفها بدقة

حديثًا) يلاحظون فكرتها بشكل عام، فنحن نعرف أن الأجسام تتمدد بالحرارة وتنكمش بالبرودة، وإذا تحدثنا عن دائرة ذات مركز سيكون الأمر مختلفا، فالمركز البارد سوف يجذب أفراد المحيط نحوه، والمركز الحار سوف يطردهم ويبددهم. والبرودة هنا شبه المركز بالماء البارد الزلال والمحيط بالعطاشى، والحرارة هى شبه المركز بالنار المتأججة والمحيط بالخشب. يذكر أبو العلاء هذه الملاحظة فى نص هام:

**(٢٤) شكل غدا يجذبه شكله**

..................................

**(٢٥) تشاكلا فى البرد فاستجمعا**

**والبرد يدنى الجسم من مركزه**

والشارح ابن السيد البطليوسى يقول: «... لأن من طبع البرد أن يدنى أطراف الجسم من مركزه، وبها يكون نمو الجسم، والزيادة فى طوله وعرضه، لأن الحر من طبعه التحليل، والبرد من طبعة التجميد والتعقيد، وهذا إنما يكون فى الحرارة الغريزية، لأنها تفعل هضما ونشئًا فى حجم ما هى فيه، وأما الحرارة الغريبة الخارجة عن الجسم فإنها تفعل فيه تحليلا وذبولا ونقصانا..»[٩].

وفكرة العيش حول المركز كأسلوب حياة، وكمنظور للكون هى فكرة تتميز بها العصور الوسطى بشكل عام، لكن النمط الصحراوى الجنوبى (الحار) يختلف كثيرا عن النمط الشمالى البارد، وما يعنينا

الآن أن هذا الأسلوب للحياة سوف يتسع مداه مع انتقال السلطة من شيخ القبيلة إلى الخليفة، ثم بعد ذلك إلى سلاطين فى ظل الخليفة أو مستقلين عن ظله بعد أن سلبوه هذا الظل. الخلاصة أن المركز سوف يكون دائرة يحيط بها عدد من الدوائر، وسوف يتسع المركز المائى من بئر أو غيث موسمى إلى نهر أحيانا فى عظمة نهر النيل، ومع ذلك ستتحول القبيلة إلى جزء من مفهوم الدوائر الجديدة، فشعب فى تجانس مثل الشعب المصرى يتشرذم شاطئ نهره فى القاهرة بين عدد من النوادى الممثلة لقبائل مجازية جعلت فكرة المركز أكثر تعقيدا، لكنها حالت دون تكون مجتمع حديث غير متشرذم. فالقرى والمراكز وأحياء المدن، والعائلات، والأحزاب السياسية، والتجمعات المهنية (تنظيمات شبه نقابية حتى لو حملت اسم نقابات)... يتمركزون حول شيخ الشيوخ، رئيس الجمهورية الآن، وقبْلُ صاحب التاجين وملك القطرين أو ملك مملكة تُمثِّل تجمعا والتصاقا لعدد من القبائل المتحالفة مثل تحالف كندة وتنوخ وحلف الفضول (فيما قبل الإسلام)، مع فرق كبير هو أن تلك التحالفات لم تكن مثل مصر لها أرض ذات حدود نهائية، ووطن يحقق انتماءً عاما ومركز آخر يظهر فى ساعات الخطر. نستطيع القول أنه بعد الإسلام وبالتدريج عبر زمن طويل حلت العقلية القبلية التشرذمية محل الوجود القبلى الصريح فى بعض أحواض الأنهار، ومع بقاء الوجود القبلى الفعلى فى الجزيرة العربية وعدد غير قليل من البلاد العربية.

ووجود العقلية القبلية بديلا للحياة القبلية حتى اليوم مع عناصر تدعمها وتتدعم بها من أمثال الحكم العسكرى أو الأوتوقراطى والملكيات المطلقة والثروة التى هبطت بعض الوقت على الفضاء القبلى الحقيقى فى الجزيرة العربية) خَلَقَ حياةً بدويةً جائلة على المستوى العقلى والنفسى، ويساعد على ذلك محاصرة المجتمعات النهرية والمستقرة بالصحراء، مع زيادة سكانية فى مكان محدود هوحرم شاطئ النهر، إننا أمام قانون فى اللاوعى يرى الموت الأصفر صانعا حدود الوطن الصالح للعيش، الوطن الشاسع فيما وراء ذلك مهجور والجميع يتكدسون حول الماء دون وعى بسبب تكدسه لدرجة أنهم يسيئون إلى النهر ومائه مصدر حياتهم الوحيد. إن افتقاد الوعى بسبب التكدس، وافتقاد الوعى بوجود مساحات شاسعة من الوطن غير معمورة، بل وافتقاد الوعى لمن يعيش فى قرية أو مدينة (أو أحيانا شارع أو حى) ببقية الوطن المعمور، يفقد التجمع كثيرا من مقومات المجتمع ليصير مجرد تجمع. إن البدوى الجائل عقليا لا وعى عنده إلا بعالمه الصغير (العربة) أو القافلة من قبيلته أو زملاء مهنة، الذين يتجول معهم. الجماعة أو الدائـــرة (وربما مجموعة دوائر صغرى Dominios) هى وطنه الفعلى، وما اتسع عن ذلك وطن نظرى محاط من جهته ومن جهة المركز (الحاكم) بالشعارات والأوهام.

إن التجمع حول الماء سوف يختلف قليلا عن تجمع التراب بالماء. إن التجمع دون وعى يسعى لدفع صفار الصحراء والذى ترمز له الكثبان الرملية الغازية لما جاورها من أخضر، إنه تجمع بالفعل تحت

ضغط مستمر من الصحراء، ومحاولة دفع أصفرها الشاسع عن الأخضر المحدود الذى بات مهدداً أيضًا بالتكدس نفسه رغم أن التكدس يجعل منه استراتيجية، ذلك التكدس الذى يلوث مصدر الماء نفسه مهددا وجوده.

ومثل هذا التجمع الفاقد لمشروع وطنى واع، يجعل التجمع من وحدات من الطوب النيىء (أو حتى الأحمر) مكررة لا تتماسك فى الحقيقة إلا بفضل السلطان الأبوى الوارث فى اتساع لسلطات شيخ القبيلة، وسلطات الخليفة أمير المؤمنين (وغير المؤمنين). تلك الوحدات الطوبية ليست إلا أفراد التجمع الذين يتميز كل فرد منهم بأنه خاضع فى استسلام مطيع فى الظاهر للسلطان نظير نيل حق الحماية، من هذا السلطان الأب الذى قد يضحى بحياته من أجل خير الجماعة وضمان بقائها.

والفرد الذى يعيش فى هذا العالم يدرك جيدا أن الخروج على السلطان (ولو باللسان أو الانتماء لمؤسسة معارضة) هو الطريق لأن يخلع ويهدر دمه فى القديم، والآن هناك ما هو أبعد من ذلك.

إن هذا النمط من الحياة عبر آلاف السنين شكل بنية أساسية للعقل (النمط الشرقى - أو الجنوبى - الصحراوى) ينعكس فى نظام للحياة شديد البعد عن النظام الغربى المعاصر، حتى أن البشر أصحاب هذه العقلية تبدو - أو تتصرف كما لو كانت تبدو - سعيدة راضية بأنها كائنات أليفة خاضعة، لأن القناعة كنز لا يفنى، والرضا بما قسم هو سبيل النجاة والبقاء.

العيش فى عالم متكرر الوحدات شديد التشظى، يخلو من أى قيمة للفرد (المعروض منه أكثر جداً من المطلوب)، يُهدَّد دائمًا بالجفاف أو بالغرق، أو بالموت، معرضا للغزاة فى أى لحظة: إنه فرد خائف، بل عبد للخوف، ولماضيه الذى يعيش فى منظومة طاغية موروثة من الشعائر والعادات، ثم لبطريركية مسلسلة لا تنتهى تبدأ برب الأسرة، وتمر برئيس العمل، وموظفى الحكومة، والشرطة، . . . وأخيراً الحاكم الأكبر أو السلطان البطريرك، وأخيرا هو عبد لمصيره الغيبى غير المعروف، الذى يخشى وقوعه فيحارب من أجل ما يعرفه حتى لا يقع ما لا يعرفه لأن الإنسان لو علم الغيب لاختار الواقع، فاستقرار صورة الواقع المتوهمة هى المستقبل الذى يناضل من أجله.

وفى الحقيقة، من يرى صورة عالم الجنوب الصحراوى سيكتشف أنهم بالفعل قرروا اختيار الواقع. إنه واقع هادئ لا حركة فية إلا بفعل أجنبى يستدعى رد فعل يكاد يكون غريزيًا. والواقع الحالى (والقادم حتى لا نسميه مستقبلا) صورة من الماضى، دون طموح فى مستقبل أفضل من نسخ صورة الماضى المتذكرة والمتخيلة فى شخص الواقع الراهن الذى يرونه دائمًا أقل من الماضى فيحاولون (تكحيله فيعمى). العيش فى وهم الماضى، وفانتازيا مستقبل يستعيده أفضل من استعادة الحاضر له، الماضى حكاوى عجائبية (لا يمكن أن يكون الماضى إلا عجائبيا يستحيل إعادة إنجازه) فى زمن راحل كان مزدهرا ومتفوقا، ينبثق من بين ركام سنين لم يعد لها وجود، مجموعات جديدة تكرر

ألف ليلة وليلة، هذا النص البديع الذى يكرر نفسه ويتشظى إلى وحدات كل وحدة ليلة حتى تكتمل ألف ليلة لتأتى ليلة جديدة بعد الألف ليبدأ بها الألف الراحل من جديد. لقد استعادت ألف ليلة الماضى بخيالها الفانتازى، وكذلك يحاول صاحب العقلية البدوية الجائلة سواء كان يجول أو لا يجول بالفعل. إن تنكير «ألف ليلة وليلة» يتيح للنص أن يتكرر فى الزمان مكررا زمن السرد مرات ومرات، كما يتيح لزمن السرد هذا أن يحتل ما شاء فى ذهن المستقبل من مكان فى الأزمان السحيقة الماضية. ممارسة لذة العيش فى الماضى والتجوال فيه، يخلق حاضراً ومستقبلا فى حالة استقرار، يحقق استقرارا نفسيا يعجبنا أو لا يعجبنا، إلا أنه فضاء روحى يشبع صاحب هذه العقلية.

هذه الحكاوى العجائبية، والتى لا تنتهى قط (فالماضى كل يوم يتسع)، تقدم صورة لعالم متشظّ فى المكان والزمان، طاقة حيوية للماضى والمصير الغيبى، وللغة البطريركية المليئة بالمجاز والشعائرية والأداعى، ولحسية قصوى لانعدام التجريد فى غيبة فلسفة متكاملة، وحضور حكمة تظهر على هيئة قطرات ومفاهيم جزئية ستشير فى النهاية لنوع من العناية الإلهية تنظم كل شىء ولو على يد الحاكم، لكنها تسلب إرادة التفكر والفعل الإبداعى فى مجالات كثيرة، ولا سيما أن الإبداع مضاد للماضى بشكل مباشر، وخرق لقانون البطريركية خطير بشكل غير مباشر.

### هـ - العقل الشرقى (نمط الجنوب الصحراوى)

والحديث عن الإبداع ، يجعلنا نسأل أين العقل فى كل هذا؟ كلمة عقل فى العربية تشير إلى القيد والربط ، والكلمة قبل إشارتها لهذا العضو داخل الرأس كانت تشير إلى الحبل الذى تربط به الناقة ، وربما يربط الوحدات البشرية بعضهم ببعض فى بحثهم عن الماء أو فى عيشهم حوله فى حالة استنفار دائم للذود عن حياضه . إنهم يعيشون كتفا لكتف (فليس صدفة ظهور الفعل «تكاتف» فى العربية) . ويتم هذا التكاتف بقيادة بطريرك متميز ومختلف وسماوى .

والبطريرك هو الراعى والآخرون الرعية أو قل القطيع . المصطلح راعٍ ثم رعية (قطيع) مصطلحان توراثيان ، وتعرفهما اليهودية والمسيحية جميعا ، فكل قسيس راعٍ وله قطيعه ، ومع ذلك فهما إرث شرقى أخذه عنا الغرب (الشمال) . وكل وحدة داخل كل قطيع يجب أن تنضبط لتستمر منتظمة فى خط سير القطيع ، ومن أجل هذا أمتلك العقل لأضبط نفسى نيابة عن الراعى تجنبا لزجره ، وخوفا من غضبه ، والعقل أيضًا لضبط الإنسان فى طاعة التكاليف الشرعية . وهكذا يخضع العاقل للقيم والقواعد التى يسنها الراعى ، فكأن العقل مصنوع لممارسة الخضوع والتنازل عن الشخصية الذاتية والحرية لصالح الجماعة من ناحية ، ولنيل الحماية من ناحية أخرى ، ضبط ذاتى للنفس طبقا لقيم خارجية .

هذه الحركة (التكاتف نحو الماء «المركز» بقيادة الراعى كمركز

للحركة)، هى تجمد يحمل المحيط «الأطراف» نحو المركز فى دائرة متحركة تدور حول نفسها مشدودة إلى مركزها بفضل العقل أو ذلك الحبل الذى يربط البعير فى وتده أو يقيد رجليه(١٠) . العقل أو دينامو الضبط . وهكذا يصبح فعل الأمر : «فكر حول قبول هذا الشأن أو ذاك» تعنى أمرًا بقبوله ، و«اسمع الكلام» تعنى أطع ما تسمع دون أن تعقله . وعندما يغضب إنسان يقال له «اعقل» ، أى اضبط نفسك . إن التحليل الدلالى لكثير من العبارات تحملنا إلى رؤية أفراد بالفعل ينتمون لقطيع مطيع لراعيه .

من كل ما سبق نصل إلى الصورة الآتية :

١ - تشظى العالم يؤدى إلى تشظى الرؤية . حبات الرمل فى انفصالها وتساويها تؤدى إلى رؤية العناصر الفردية التى يتشكل منها العالم منفصلة عن فضائها ووظيفتها . العالم مثل حبات الرمل لا اتصال حقيقى بين أجزائه ، وتماسكه تماسك ظاهرى سوف يتلاشى . والحقيقة أن عالم الصحراء يتشكل بالفعل من موتيفات أو عناصر متكررة منفصلة تخلق جوا من التماثل مثيرا ، فقد نقل شخص نائم بعد تخديره قليلا مائة كيلو ، واستيقظ دون أن يدرك أنه قد انتقل من مكانه السابق .

٢ - معنى هذا أن الرؤية جزئية ، وهكذا صارت الأمثال والحكم القصيرة الموجزة بديلا عن الفلسفة ، والصراع اليومى (ضد قسوة الطبيعة ، وللذود عن المياه أو لاغتصاب المياه ، ثم لتنفيذ مهام قبلية)

بديلا عن المسرح فالصراع النفسى بين العواطف المتضاربة لا يليق برجل صحراوى(١١) . عليه أن يكتم هذا الصراع ويضبط نفسه لصالح الصراع الخارجى. حرية الفرد داخل مجتمع حر هى السبيل لإطلاق المشاعر من عقالها تتصارع، ينتصر منها ما ينتصر ويتلاشى منها ما انهزم، فلا كبت ولا قهر للذات بيد الذات نفسها، دراما واقع سوف تنعكس فى بنية الأسطورة ثم فى بنية أداء تمثيلى سمى الدراما؛ مجتمع الضبط الذاتى واحدى النظرة واحدى العاطفة خارجى الصراع لا دراما فى حياته كى تنتقل إلى أسطورته ومسرحه، فالأسطورة الشرقية (نموذج الصحراء) لا صراع داخلى، فالكل مستسلم لمصيره. الصراع بين ست وأوزريس يحسمه رع ولا يؤدى إلى صراعات نفسية، وحتى حزن إيزيس أفقى، وصراع حورس مع ست عضلى عسكرى يحسمه رع، وينتهى الأمر إلى التصالح. لا دراما مثلما تلك التى نراها فى أسطورة أوديب فى صراعه النفسى الهائل فى كل خطوة من حياته: الدراما هنا تشكل الأسطورة، ولعلها تعكس حياة المجتمع الحر فى أثينا والمدن اليونانية. هل استخدام مدرسة التحليل النفسى لأبطال الأساطير اليونانية للإشارة إلى بعض ما كان يسمى عقدا نفسية مثل عقدة أوديب وعقدة إلكترا والنرجسية كان عبثًا أم هو كشف علمى لدرامية الحياة اليونانية؟ الدراما الحياتية تخلق القلق، والقلق (موتور) الإبداع والتجديد، إلى حد أن يصير التكرار إبداعا ونبوءة، فبنيلوبى فى غزلها المنقوض ليلا لما تنسجه نهارا، كان وسيلة إبداعية للهرب من إلحاح الخطاب، وثقة

منها فى عودة أوديسيوس، وهى ثقة تصارع فى نفسها كل عوامل اليأس، وكل صفاقات ضغط الإغراء من الطامعين فى زواجها، بجانب موقفها كأم. إن الفعل الخارجى إيقاع للصراع الداخلى، وهذا لاشك باب للإبداع.

بينما فى التجمع حول الماء أو حول البطريرك كلاهما مرآة للآخر، حيث الضبط العقلى، وواحدية العواطف، وسيادة الصراع الخارجى بديلا للصراع الداخلى، تصبح الحياة جحيمًا، لأن الوحدات المتكررة الآدمية تتزاحم وتتشاجر وتتحاسد وتحقد وتمارس أنانيتها وتستجيب لمطامحها، بقدر ما تستطيع على حساب الوحدات الأخرى. فالدراما فى الحياة تجعل الصراعات داخلية، وتنضج العاطفة نحو الآخر فى الداخل قبل أن توجه إلى ذلك الآخر، بل تصير تلك العاطفة موضوعية، أما انعدام الدراما أو قل انعدام الحرية، وقيام العقل بالضبط الذاتى لصالح البطريركية، فلا خيار ينضج بالداخل، ولكن عواطف أنانية عنيفة رغم أنها بلا جذور، وكلها تباعد بين الوحدات المتكررة، التى يرغمها العقل على التكاتف، فيبدأ الكذب والنفاق والتقية والتحايل وحرب الكيد التى تشير إليها العبارة المشهورة «كيد النسا غلب كيد الرجال» لأن الرجل بعضلاته ينسى أن الحيلة قد تهزم القوة. . . نمط «إذا مت ظمآنا فما نزل القطر»، هو النمط السائد.

٣ - لكن كيف تكون الرؤية جزئية ومركزية فى نفس الوقت؟ إن كل شىء ينبغى أن يؤدى إلى المماثلة، أو إلى المركزية: بمعنى أ ن

الأمثال، والحكم، والآراء كلها تهدف إلى حماية النظام البطريركى أو إبقاء فكرة المماثلة «اكفى القدرة على فُمِّها تطلع البنت لأمها»، أو الاستقرار الذى هو الحماية للمماثلة فى تجسمها البطريركى «الميَّه ما تطلعشى فى العالى»، «العين ما تعلاش على الحاجب»، «من غيّر لغته غيّر دينه»، «من فات قديمه تاه»، «من ترك داره قل مقداره». . .

**(٢٦) وينشـــأ ناشئ الفـتـيـــان منا**

**عـلى مـــا كــــان عـــــوّده أبـوه**

وهكذا من شابه أباه فما ظلم. . من ثمّ أتخيل طبقا لما أرى من تكرار عبارة «توجيهات الرئيس»، أنها عبارة صادقة وليس ادعاءً، فإن المسؤولين الكبار يرون الأمور رؤية جزئية، وحتى تكون فى صالح النظام المركزى البطريركى يحاولون تخيل حكمة الرئيس وإرادته. . كذلك، فإن مثلا نظام «الفصلين الدراسيين» فى الجامعة والمدارس لم يدرس فيه الميزانيات والإمكانيات وجامعات الأعداد الغزيرة، بل لم تدرس ولم تفهم فلسفة هذا النظام نفسه، وإنما فرض لأسباب سياسة أو مركزية، إنه بناء جزئى فاشل، ومكلف جدا. . كذلك إن تنظيم المرور فى ميدان أو شارع أو حتى بناء محاور حول القاهرة، فهو جزئى يحل مشكلة فى موضعه ويخلق مائة مشكلة فى أماكن أخرى لأنه جزئى، ولعل وراء نظام ما فى أى تخصص هو حل مشكلة شخصية لأحد المسؤولين، باعتبار أنه بطريرك صغير فى خدمة النظام وراحته وأمنه من وجهة نظر مرؤوسيه هى توجيهاته، وهو

يفعل نفس الشىء مع من فوقه، العمل فى ظل الرؤية الجزئية المركزية هو غير موضوعى، غير مدروس، غير منظم غير مشطَّب نهائيًا، غير مرتبط بالواقع، وإنما بوهم اسمه التوجيهات، أو إرادة المركز.

الرؤية الجزئية المركزية هى رؤية أفقية ذات منظور ضيق محكوم بالمعرفة الماضية وإرادة المركز، ومجموع الرؤى الجزئية المركزية تراكمات عشوائية لا تتعالق ببعضها، ولا تتفاعل فى أى لون من ألوان الجدل، لأنها كما هى فهم للواقع هى فى نفس الوقت مشاريع لتثبيته أمام قدرة الواقع على التلاشى والفناء، وخاصية الماء على التبخر والجفاف.

والرؤية الأفقية غالبا سطحية جانبها العمودى أو العميق غير ممكن أمام التشرذم والعشوائية والتكرار. إنها مثل إيمان العجائز الذى تمناه مرة عمر بن الخطاب رضى الله عنه.

## و- العقل الغربى (نمط الشمال الغرب أوربى)

فكرة المركز البارد وجمع الأطراف وضمها بشدة نحو المركز، هل تنطبق على حياة الغربى (الشمالى) وتكوين البنية الأساسية لعقله؟ ما دمنا قد أرجعنا هذه البنية الأساسية للجغرافيا فلنتناول بشكل عام جغرافيا الشمال: جبال وسهول ووديان يغطيها الجليد حينًا من الدهر كل عام، وتمطرها السماء دون توقف أو ما يكفى للاعتماد على المطر فى إنشاء حياة مزدهرة. الغابات تغطى مشاهد واسعة والأخضر أو الأبيض الجليدى مشهدان متبادلان. تنوع غير محدود لكل

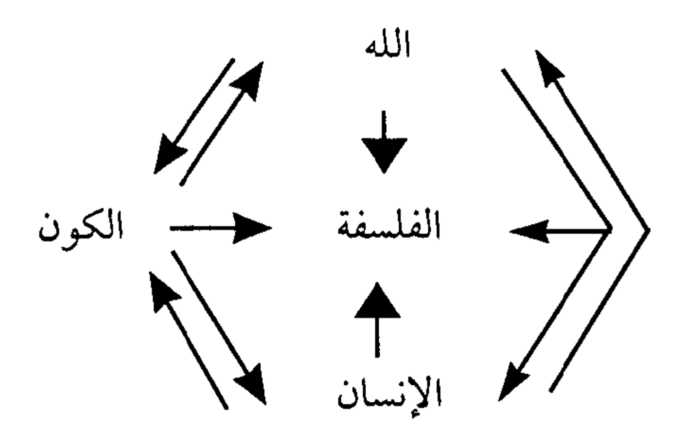
التضاريس، سماء غائمة غالبا تجعل مشهد الشمس عزيزا نادرا. الرائى يرى جبالا صخرية فى جلال واتساع وتسلسل تتخللها وديان، ومصبات مياه وأنهار تستقبل الماء من مصباتها ومن الأمطار.

الرائى يرى مشاهد كلية متماسكة ويقف فوق أرض ثابتة فى جو بارد يجعله يبحث عن نار يتجمع حولها فى تلاصق. ومع ذلك، فلابد من التمركز فى مكان والانطلاق منه لدراسة تفاصيل المشهد الكلى المتماسك، ومعرفة كيفية التغلب عليها واستثمارها، وهكذا تجبر الطبيعية الشمالى (أو الغربى) على التحرك من مركزه المتجمع (فى تلاصق وتجمد تقريبا) نحو المحيط المتحرك الذى قد يتسع لدائرة وجوده، وهذا الاتساع يطَّرد استجابة لطبيعة تستفزك لاكتشافها وتجبرك على السيطرة عليها حتى لا تهلكك، وهكذا ينتشر التجمع بأفراده المتعددين بقدر تعدد التنوعات التى تسفر عن تدفقها فى ثراء المشهد الاحتفالى تقريبا للكينونة الجغرافية. وهكذا يكتسب الأفراد شخصيات غير متماثلة فى طبوغرافيا عدم التماثل، لكنها طبوغرافيا الفضاء الحيوى الذى يسمح لكل فرد بالتنفس والتشكل فى حرية وتعدد هما من خصائص طبيعة الشمال الخالية من حتمية الجنوب الصحراوى التى تفرضها مركزية الماء مقابل لا مركزية الماء فى الشمال.

إن هذا الانتشار لا يمنع الجميع من العودة للتجمع فى المركز بإرادتهم، وإن لم يعودوا إلى ذلك المركز يصبح التجمع سمة عقلية تتحول تدريجيا إلى بنى سوسيولوجية تزحف عبر الزمن نحو ما وقع بالفعل الآن ويطلق عليه المجتمع الحديث.

مع مرور آلاف السنين وبمحاكاة العيش فى حركة من المركز نحو المحيط تتشكل بنية أساسية تبحث عن وسائل لفهم وتحليل الكليات إلى عناصرها الأولية، وخلال هذا التحليل يحتفظ العقل كخصيصة لكل عنصر من عناصر بنية كلية بموقعه من هذه البنية وعلاقته بباقى العناصر.

وهذا يخلق عقلية تحليلية تربط كل الأشياء ببعضها بخيوط من العلاقات الحقيقية، أو بشبكات من العلاقات القائمة فعلا، والتى يكشف عنها التحليل أو التفكيك، وهكذا يصبح التحليل الطريق لعمل علاقة موضوعية مع العالم، وفهمه فى كليته بقدر ما يسمح تفكيكه إلى مكوناته البنيوية، بنيوية الطبيعة تنشئ آلية التفكيكية العقلية، وهذا لابد أن يحمل إلى بنيوية كونية سيطلق عليها اسم الفلسفة.




## ز- عقلان وثقافتان

وهكذا نرى حياتين وعالمين ينشئان عقليتين متباينتين، وعقلين متباعدين فى الاتجاه أو فى الاستراتيجية. عقل عينه على المركز

والآخر ظهره للمركز . أليست مركزية الحكم الثقيلة فى الجنوب الصحراوى ولا مركزية الحكم المبالغ فيها أحيانا فى الشمال هما نتاج العقلين ، أليس غريبا أن تنتج عقلية التشرذم والرؤى الجزئية المركزية تجميعا مذهلا مركزيا للسلطات ، وعقلية التحليل والرؤى الكلية لا تنتج إلا اللا مركزية ! نعم إن النضال ضد الطبيعة يخلق مع الوقت الملكية الفردية والتنافس والوعى بما هو عام وما هو خاص ، وهكذا يظهر الفرد القادر على القيادة بقوته الفيزيقية والعقلية الخارقة ، والتى تمكنه من إقناع الآخرين بقيادته وبطريركيته ، لفرط تمثيله للجميع ، والصالح العام ، وهو يستخدم قوته لاستمرار ضمان ولائهم له مقابل حد ما من الحرية والعدالة والحماية . إنه البطريرك الإله ، إله أرضى أو ابن الإله ، لكنه مساوٍ للإله السماوى .

العقل الشرقى (نمط الجنوب الصحراوى) قادر على إنتاج الأديان ، وتلقى الوحى فى صحرائه الموحشة منشئًا حضارات ذات جذور دينية ، واستمر ذلك حتى العصور الوسطى الأوربية ، ومنذ فجر التاريخ الذى تم افتتاحه فى تلك الصحراء الكبرى المدهشة ، التى ظلت (وما زالت) تحول كل ما هو فيزيقى إلى ميتافيزيقى ، وتحيط كل مرئى بقشرة غير مرئية تصنع غيبا مكتوبا فى لوح محفوظ أو سر مكنون وأخيرا أنتجت التكنولوجيا اليدوية المتقدمة ، حتى يقاوم إنسانها الرمل والجفاف . نحن نتحدث مثلا عن الساقية وعن الخلجان وعن العيون ورفع المياه وبناء القناطر والجسور والبيوت ذات الحدائق المحققة لحلم الجنة : وهى مكان به عيون جارية لا ينفد ماؤها ولا

يجف وتوجد حيث تُحرِّك ساكن الجنة، صانعةً فاكهة ورمانا، وخضرة أفنانا.

نظريته التى تتأسس عليها الحياة اليومية عبارة عن منظومة متراكمة ومتداخلةمن الخبرات والتجارب العامة، التى تخثرت مع الزمان وصارت خبرات موروثة، وقد يختص بالخبرة بيت يحتفظ بأسرار المهنة يعلمها الآباء للأبناء والأحفاد، ويضنون بها على الغرباء، نوع آخر من المركزية ذات الدوائر الأصغر، فكان لجس البهائم بطريرك، وللنجارة بطريرك آخر، وللحدادة بطريرك ثالث. . وهكذا، وهذا معناه ثبات أصول الحرفة ووقف تطورها، ومع ذلك فتضافر الماء والرمل والتكنولوجيا اليدوية المدعومة حينا بجهد الحيوان الأليف نجحت فى خلق حضارات متوالية ومتعددة.

وتنقسم حياة الجنوب الصحراوى كما أسلفنا إلى نوعين من الحياة: نمط (النهر - الطمى)، ونمط البدوية الجائلة بحثا عن الكلأ والماء، وبين الحياتين يوجد نمط (مطر - سدود)، ونمط (واحة - آبار)، وقد يجتمع هذان النمطان الوسط، لكن فى جميع الحالات الوجود محاط بصفار رمال الصحراء، وفضائها الممتد غير القابل للحراسة فى مقابل قابليته للغزو. حياة النهر والواحة سوف تستثمر تلك التكنولوجيا عبر إعالة الأسر الممارسة لها بالوراثة، وقد يتم تدمير منتجات تلك التكنولوجيا لسوء الحظ عبر القبائل البدوية الجائلة بحثًا عن الكلأ والماء، وما يقيم الأود من الطعام. إنهم أصحاب الغارات المخوفة التى ليس إلى دفعها جملة واحدة من سبيل.

حيوانات الغابة تتغذى على بعضها بعضًا، وهو نمط شبيه بإنسان الصحراء الجائع يسطو على الغذاء عند الإنسان الميسور. قد تتحول غارات السطو إلى غزو، فسيف البدوى على رقاب الأمصار المستقرة (هكذا سمى نمط النهر والواحة)، وتكنولوجيا ودين الأمصار تكبح البدوى، وتحوله من الغارة والسطو إلى إعلان الولاء والتبعية.

الرعى والحرب (نمط التجول) يواجه الزراعة والاستقرار والسلام. البدوى يحلم بأخضر خالد، وحياة مستقرة، والمستقر فى مصره (نهر - واحة) يعيش كابوس الأسوار المفتوحة لصحراء تقذف فى مفاجأة بغارات البدو، وبين حلم الأخضر وكابوس الغارة تولد رؤية الزمان.

الوقت بدوى جائل أبدا لا يتوقف، إنه آن يتحرك فى خط رأسى حركة تحمل المصائب والردى، وتتجه إلى الأبد أو الأزل إلى عالم الغيب، الزمان قادر على كل شىء ومخوف، وما زال العرب اليوم يتحدثون عن الزمن الردىء. الزمان فاعل ومسؤول عن المصير فى جانبه الكوارثى، ورضاه خدعة، وهداياه استدراج. إنه زمان مطلق أبدا، وحدات متتالية متكررة لأيام نصفها أبيض (النهار) ونصفها أسود (الليل). والليل والنهار أو الجديدان:

**(٢٧) هما الفتيان استوليا بتعاقب**

**وما لهما لبٌّ فكيف يَشِطَّان**(١٢)

(٢٨) فكل غنىّ يسلبان من الغنى

وكل كمىّ عن جواد يحطان

وهما فى حركة دائبة تشمل كل الأمكنة:

(٢٩) وكم نزلا من مهمه وتحملا

بغير حسيسٍ عن جبال وغيطان

ويستمر أبو العلاء فيصفهما بالسرعة الخارقة، ومع سرعتهما وانتقائهما لشحم عظامنا وشقهما لجلودنا وتحولهما إلى شاطئين لحياتنا وموتنا وهما واعظان:

(٣٠) وما برحا والصمت من شيمتهما

يقصان فينا عبرة أو يخطان

والزمان قدر فرضه الله:

(٣١) مطيتى الوقت الذى ما امتطيته

بودى، ولكن المهيمن أمطانى

وهو مثل زماننا الذى نصفه اليوم بأنه ردىء:

(٣٢) رأيتك مفقود المحاسن غابرا

مع الناس فى دهر فقيد المحاسن

ومع ذلك فالصورة ليست قاتمة تماما، فنحن يمكن أن نواجه الزمن الردئ:

(٣٣) أعـدد لكـل زمـان مـا يشـاكله

إن البـراقع يُستـثبتن بـالشـــــبم[١٣]

أيضًـا هناك أحـاديث عـن زمـان حلو، ولا سـيـمـا فى تراثنا الشعبى. حقا، هو قليل ذاك، لكن مفهوم الزمان بين الحلم البدوى والكابوس النهرى يحمل فى أغلبه صورة القضاء والقدر، من ثمّ يفقد دوره كمقياس لحركة هذا الكوكب ليصير من أمور الغيب وعالم الأسرار، وكينونة فاعلة ممتدة فى فضاء متوهم هو الكون كله، وهل هناك كون أبعد من الصحراء، وسماء غير سمائها؟

الزمن الخطى المقياس المحايد الموضوعى (إلى حد كبير) يوجد فقط عند الغرب (حتى لو كنا من اكتشفه ووضع التقويم الشمسى) فى رؤيته للزمان، ولهذا اليوم عندنا يبدأ بالليل لأن تقويمنا قمرى يعرف مبادئ الشهور بهلال لا يهل إلا بالليل فى أول دورة القمر، بينما اليوم يبدأ عندهم بالنهار لأنه شمسى يعرف بحركة الشمس الوهمية فى البروج. الزمان الشمسى ثابت موثوق فيه مضمون، ففصوله معروفة ومتوقعة، أما الزمان الهجرى، فهو مثل الأرض الرملية غير ثابت مذبذب مدى كل شهر، غير موثوق فيه غير مضمون أولا وآخرة، لا تنقسم السنة فيه إلى فصول معروفة أو غير معروفة، متوقعة أو غير متوقعة، إنه زمان يقسم السرمدى الأزلى الغيبى إلى وحدات، لا يصلح إلا لتحديد الشعائر الدينية التى تأتى وتروح على هوى القمر، أو قل الزمان القمرى، أو قل الدهر: «لا تسبوا

الدهر . . » . ونظام الحياة الغربى (من المركز للمحيط)، لا يؤدى إلى إبداع التكنولوجيا اليدوية بل استيرادها، لكنه يدفع لصنع حضارة عقلية : تفكير نظرى فلسفى، يحول الفلسفة إلى علم موسوعى يضم كل العلوم، ويقدم نظريات علمية وأنظمة سياسية متقدمة، مع فشل نسبى فى الحياة اليومية التى ينبغى أن تعتمد على التطور التكنولوجى الذى يواجه طبيعة شديدة القسوة والصعوبة. وكان العيش يعتمد على الحروب، مع استيراد التكنولوجيا الشرقية، أو محصول أدائها : ألم تكن مصر مزرعة القمح لروما؟ ألم تستعمر الإمبراطورية الرومانية غربية ثم شرقية الشرق العربى القديم لذلك السبب؟

احتاج إذًا، الشماليون لبطريرك ليقودهم فى حروب لسرقة محاصيل الجنوب، أو أسر عبيد وعلماء لتطوير تكنولوجيا الشرق وزراعتها مطورة فى بيئة مباينة لبيئتها الأصلية، ولعل الوجود العربى فى أسبانيا يكشف عن حالة استثنائية غزا فيها الجنوب الشمال (شمالية إسبانيا هنا نسبية، فهى جنوب الشمال الأوروبى الغربى واعتبرت دائما من ناحيته جزءًا من إفريقيا)، وزرع فيها التكنولوجيا الجنوبية فى تطوير مذهل لها، مما جعل أنشطة الرى فى أسبانيا ضربا من الخيال المعجز بالنسبة للشماليين. إن معظم الكلمات العربية التى دخلت الأسبانية (وعن طريقها دخلت لغات أوروبية أخرى)، كما يقول أميريكو كاسترو، كانت مفردات التكنولوجيا، ولقد نجح الإغريق فى مد لغتهم فى الزمن القديم بتلك المفردات من مصر،

معطين اسما إغريقيا لكل آلة أو منتج فرعونى، ولعلهم كانوا يكسون الكلمات المصرية إطارا إغريقيا فحسب.

ولا شك أن كلا من الملاحم الغربية والسير الشعبية العربية تعكس هذين النمطين من الحياة البطريركية : النمط (الجنوبى الصحراوى)، والنمط (الشمالى الغرب أوربى). فأنا أظن أن السيرة العربية تحكى سيرة حياة بطل، بينما الملحمة الغربية تحكى سيرة حروب خاضها أبطال، ربما على رأسهم البطل البطريرك. البطل العربى لا يعود إلى مركزه قط فى تغريبه، وأوديسيوس يعود إلى ملكه وبيته فى الآخر.

فى السيرة العربية، البطل بطل بدمائه ونسبه (مركز)، ومع ذلك، فهو يولد فى جو من الشك حول نسبه، وكفاحه يصبح هدفه إجبار مجتمعه على الاعتراف بدمه ونسبه، حتى يدافع عن الجماعة وعن مائها وشيخها ونسائها.

وعلى العكس فى الملحمة الغربية، البطل ينتهى من حيث ابتدأ، هو يبدأ معترفا به، رجلا كاملا، يعتمد عليه المجتمع فى الدفاع عن شرفه أو أرضه أو يدفعه لغزو. وهو منذ البداية يدافع عن المصالح العامة، وإن كان وسط تدخل تقريبا إنسانى ولعوب من جانب الآلهة، البطل مثيل للإله أو نصف إله إذا صح التعبير، وهو يدخل فى سلسلة من المغامرات السندبادية تحلم بالاكتشاف للمجهول، وغزو عوالم غير معروفة من المعرفة. وتكاد تكون غزواته كلها ضد أجنبى أو غريب، بينما تكاد تكون غزوات البطل العربى ضد أعداء

عرب مسلمين كانوا أو مشركين، من نفس الجنس والسلالة، بل تكاد تكون حروب الزير سالم داخل نفس أسرته. أبطال الملحمة الإغريقية يعانون مواقف درامية قد تصل إلى حد المأساة، وأبطال السيرة صراعهم ليس له جذور داخلية. إن معاناة عنترة المفترضة كان من الممكن أن تكون موضوعًا لصراع درامى مذهل، لكن لم يحدث، فالمعاناة والعواطف تشع من البشرة الخارجية دون أن تصدر من النفس فى الأعم الأغلب.

فى الملحمة الغربية صراع بين أمم وآلهة، والسيرة العربية صراع بين أنساب وأعراق.

حرب البطل العربى (مع استثناءات نادرة) كما لو كانت سلسلة من الحروب الصغيرة، بينما حروب البطل الغربى شاملة، لو استبعدنا جانبا الصراعات الدرامية بين الأبطال والآلهة وبين الأبطال وبعضهم البعض، لكن فى حالة كل من السيرة والملحمة تلعب النبوءة دورا هاما.

النبوءة فى الملحمة الغربية تدفع لتحدى القدر، حتى لو انتصر القدر فى النهاية. النبوءة فى السيرة قدر يتحقق ويقبل فى خضوع للقدر واستسلام، أو فى تسليم به، النبوءة فى الملحمة تدفع لعمل مشروع للمستقبل، وفى السيرة لا مستقبل، لأنه كل شىء مكتوب منذ الأزل، فالنبوءة تطلع فى «الآن» رحم الماضى والحاضر والمستقبل. فى الملحمة الغربية إرادات آلهة وإرادات بشر بين الصراع والاتفاق، بينما لا إرادة

لأحـد فى السـيـرة لأن كل شىء مكتـوب ومـقـرر، فـقط ينتظر لحظة وقوعه. البطل الملحمى الغربى ينتهى إلها فى كثير من الأحيان بينما بطل السيرة وجود مرآوى للولى (أو القديس).

وهكذا نحن أمام عقلين، الغـربى يرى الزمان خطى دياكرونى، والشرقى (الجنوبى) يرى الزمان ذا سطح أفقى، بلا حراك، يملأ فراغ الكون، حـيث يرمح رَمْحًا كـوارثيـا جـواد آن، أو ربما جـوادا الليل والنهـار همـا الرامـحـان، وفى الحـالتين، هـو رَمْحٌ لكشف السـتـر عن المكتوب.

هناك زمن غربى يتيح للرجل فضاء المستقبل للتدبير والتخطيط، وهناك زمن عـربى (شرقى) مـغلق بين لحظتى الميلاد والموت، إنهـمـا شاطئان زمنيان بهما يحاصر الزمن الإنسان، وبين الشاطئين تسبح فى كل اتجاه بشكل عشوائى «آن» مجنون، «مكر مفر مقبل مدبر معا» مثل جواد امرئ القيس.

البطريرك الغربى يراه قومه رجلا متميزاً حقا، لكنه رجل يولد ويموت، لكن البطريرك الشرقى يجسد سلسال العرق الشريف الذى ينتـمـى إليـه، ويمتـد فى ولده. . إنه خـالد لا يموت، وعند مـوته لا يصدق الناس، وبالفعل يتم تكذيب الخبر عندما يحل الخلف (حتى لو لم يكن ابنه فنسب البطريرك رمزى إلهى يصيب من يحتل المنصب) محل السلف. لقد خرجت ملايين المصريين إلى الشوارع فى جنازة لخبر موت عبد الناصر وليس فى جنازة عبدالناصر نفسه، فقد احتل صورته السادات.

البطريرك العربى خليفة أو سلطانا أو ملكا أو أميرا أو شيخًا أو رئيس دولة أو رئيس جمهورية أو أى مسمى هو نفس النسخة أو قل كلهم تكرار لبعضهم بعضا. نسخ لأصل متوهم سَلَفَ صاروا له خلفا. كلهم نقطة ثابتة الوجود لبطريرك أوتوقراطى يجمع بين السلطة الدينية والزمنية.

كل الصورة المشرقية عبارة عن واقع يدخل عالما من الفانتازيا، لأن الاعتقاد السائد (بوعى أو دون ،عى ) أن العالم خيالى. . لا وجود له. . فهو مجاز محض. . وَهْمٌ محض. . فإذا كان العالم مجازا، فكيف يكون المجاز فى الفن. . التجريد. . صور تجريدية بلا صور. . ألوان تعوم فيها موتيفات فى حالة تشظى لاستنساخ نفسها. . الله واحد أحد مطلق لأن تكرار الوحدات مطلق. . العالم يبنى ويهدم بشكل مستمر، وبينهما تنبثق تجليات إلهية جزئية، لكن تكرارها لا ينتهى عند الحديث عن الله: فكأن الفن الشرقى يسير فى طريق معاكس للفن الغربى الذى يجرد العالم فى الفلسفة، ويصوره فى الفن، ، أى أن الواقع حتى يُفْهَم يُجَرَّدُ فلسفيا، وحتى يُحَسُّ يُشَخَّص فى الفن. . الفن انتقال من الواقعى إلى الخيالى، أما الفن العربى فهو انتقال من الخيالى إلى دلالته ومعناه المجرد.

ولهذا فالصورة فى الأدب العربى تستبدل الخيالى بالمجرد، والمجاز يكاد يعادل الحقيقة بمفهوم ميتافيزيقى يفك شفرة الوجود الخيالى للعالم.

الشرق مختلف عن الغرب، كما رأينا في بنيتي العقلين: العقل الشمالي الغرب أوربي (ممثلا للأنماط العقلية في الغرب)، والعقل الجنوبي الصحراوي (ممثلا للأنماط العقلية في الشرق). الشرق شرق، والغرب غرب ولا يترادفان لكن يلتقيان لقاءً له معنى الأخذ والعطاء المتبادل. ونمط الارتجال فيما يلي من صفحات يعد أحد تجليات العقل الجنوب صحراوي في وجوده الشفاهي حتى لو مارس الكتابة.

والعقل الجنوبي الصحراوي (النمط الشرقي) في العصور الوسطى كان ملائمًا لاحتياجات العصر، وصل مع الإسلام إلى درجة من النضوج والطموح وتفتح للإبداع، وتحول مؤقتا وجوده الجائل إلى وجود مهاجر لنشر دعوته والانفتاح على الحضارات والعوالم التي طالما تفوقت عليه. . هذا العقل أصبح اليوم، ، لثباته واستقراره غريبا، يعيش في غير عصره، لا يملك أدوات الإبداع والقوة والتكنولوجيا. لقد شعر بعجزه وقصوره، فانطلق يحاكي العقل المبدع الآن وهو العقل الشمالي الأورو - أمريكي (الغربي) محاكاة ألحقته بغيره وخلقت منه تابعا كما يعرض المقال التالي «عصر الرجال الأطفال».

## هوامش

(١) البيت ١ - ١١ لأبى العلاء المعرى، ثم الأبيات ٢١، ٢٤، ٢٥، ٢٧ - ٣٠ له أيضًا.

(٢) البيت ١٢ ، ٢٠ لامرئ القيس.

(٣) أبو العتاهية.

(٤) الطرطوشى، سراج الملوك، تحقيق جعفر البياتى، الريس، لندن، ١٩٧٧.

(٥) نفسه ص ١٥٣.

(٦) نفسه ص ١٦٢.

(٧) نفسه ص ١٩٣.

(٨) نفسه ص ١٨٩.

(٩) شرح المختار من لزوميات أبى العلاء لابن السيد البطليوسى، تحقيق د. حامد عبد المجيد، القسم الأول، القاهرة ١٩٩١، ص ١٤٥ - ١٤٦.

(١٠) هذا ليس مجازا محضًا، فأحيانا تخرج مجموعة من أهل الريف من باب الحديد فى القاهرة قد ربطت نفسها بحبل ينتهى عند قائد يعرف المدينة، وذلك حتى لا يتوهوا أو يتفرقوا فى ذلك التية : القاهرة.

(١١) ألا يذكركم ذلك بأسلوبنا فى التربية، عندما يبكى الطفل الذكر نقول له : لا تبك فالرجال لا يبكون» عموما بدراسة التعبير فى النشاط الاتصالى العربى نجد أنه تعبير يعتمد على اللغة ويكبت التعبير غير اللغوى بالإشارات وتعبيرات الوجه واليد وغيرها. إن كبت التعبير غير اللغى مثل البكاء وإعلان حب رجل لامرأة واعتباره ضعفًا أحد أسباب غيبة فن المسرح عند العرب.

(١٢) يشطان : يظلمان. واستوليا سيطرا على شئون الخلق بتعاقبهما. واللب العقل. يقصد لانعدام عقلهما لا يوصفان بالظلم.

(١٣) الشبم : حبال تثبت بها البراقع، ومواجهة الزمان تثبتنا فى مقاومته.

# عصر الرجال الأطفال

## تأملات مبدئية حول انغلاق دائرة التبعية

القضية الغائبة عن الرؤية عند المفكرين العرب هى قضية التبعية، مع أنها قضية القضايا، وكل معالجة لمشاكلنا تدخل فى نطاق الجزء الذى يصب فى بحيرتها الآسنة أو الذى ينبع من تلك البحيرة المجهولة الساكنة. وقد تحدث هؤلاء المفكرون فى السنوات الأخيرة عن أننا نعيش فى الزمن الردىء، ثم كشفوا عن أعراض هذه الرداءة، وكأنهم فى هذا تابعون لأسلافنا فى سب الدهر، رغم ما جاء فى الأثر «لا تسبوا الدهر، فإن الدهر هو الله». أيضًا تحدثوا عن التخلف وآثاره المفزعة فى كل جوانب الحياة، وكادوا أثناء هذا الحديث أن يصلوا بنا إلى واحدة أو أكثر من القناعات التى ترجع التخلف إلى الاستعمار أو انعدام الديمقراطية أو السلفية أو الفقر والفساد وسوء توزيع الثروة، وربما إلى الجهل أو إلى ذلك الزمن العربى الردىء الذى نعيشه حاليًا. والصواب - فى رأيى - أن كل ما يذكرونه من علل ومعلولات ما هى إلا أعراض ومضاعفات لحالة تاريخية مزمنة اسمها «التبعية»!.

وقبل أن أعرض شيئًا عن هذه الحالة التاريخية المزمنة أنطلق كما انطلق إقليدس فى هندسته (ولا مجال الآن إلى تجاوز القواعد

الإقليدسية فى العلوم الاجتماعية نحو الرياضة الحديثة الفضائية) من مجموعة من البديهيات والبراهين الاستنتاجية بجانب شىء من الفلسفة الاستقرائية.

وأول هذه البديهيات: أن التبعية حالة تاريخية مزمنة خرجت عن مسار التاريخ الإنسانى، وباستعمال مصطلحات ماركيز فى روايته «مائة عام من العزلة» هى شظية من الزمن القديم الآفل لا زالت تسبح فى فضاء الزمن التاريخى الحاضر.

وثانى هذه البديهيات: أن التبعية ليست حالة عربية، بل هى عامة تشمل ما أطلق عليه «العالم الثالث»، حيث تسيطر عليه سيطرة مطلقة، وباستخدام مصطلحات الوراثة (وهى أدخل إلى موضوعنا بشكل ما) هى صفة وراثية سائدة داخل هذا العالم بينما لا ينعدم وجودها داخل العالم المتقدم لكنها عندهم صفة وراثية متنحية، أى أن هناك تداخلاً بين العالمين تكاد تتراوح فيه التبعية بين السيادة والتنحى عن طول وعرض منطقة شاسعة من كرتنا الأرضية تفصل بين العالمين الثالث والأول (المتقدم) تشمل - فيما تشمل - الاتحاد السوفيتى ودول أوروبا الشرقية وبلاد البلقان وبلاد «شياطين الشرق الأقصى»، وربما البرازيل. وبهذا ينقسم العالم إلى عالم أول «مستقل» وعالم ثان «بين بين» وعالم ثالث «تابع»، نتشرف نحن العرب بالانتماء إليه.

وثالث هذه البديهيات: هوأن مفهوم «الاستقلال» الوارد فى

القانون الدولى لم يعد له أى مضمون حقيقى سوى بعض المظاهر الشكلية، وطبقًا لهذه البديهية فالاستقلال لا يجتمع والتبعية، وقد عجز الاتحاد السوفيتى (وهو قوة عظمى) عن الاستمرار فى المحافظة على استقلاله، وانهار نظامه لأن حقن الأيديولوجية لم تضع فى اعتبارها غول التبعية الذى كان ينهش لحمه وعظامه فى مأمن تحت حماية ثقل الآلة السوفيتية التى ترمز لكل دلائل التبعية.

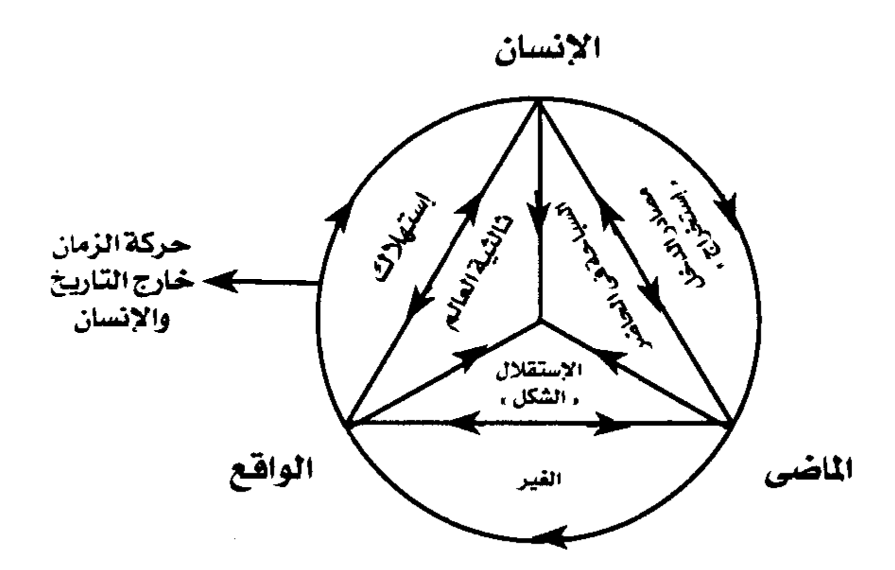
ورابع هذه البديهيات: هو أن التبعية تعنى الاستهلاك للمنتجات المادية والروحية للغير وتوقف الإنتاج الإنسانى، وأنها تضاد هذا الإنتاج الإنسانى وتعاديه، ويقصد بالاستهلاك انعدام فرص الإبداع والاختراع والتطور نحو الأفضل على المستوى المادى (التكنولوجى) والروحى (المعرفى).

وخامس هذه البديهيات: أن ذلك الغير الذى يتم استهلاك إنتاجه هو السلف الصالح والطالح (لا تفريق بينهما) أو القوى المعاصرة المبدعة ذات التقدم والتى تتجاوز نفسها دائمًا فى الإنتاج، فيتلقف التابعون منتجاتها التى تلقى بها بعد أن تم تجاوزها عبر تدفق عجلة الإبداع والاختراع المتزايدة.

وسادس هذه البديهيات: أن مصادر الدخل فى ظل التبعية هى مواد خام من زراعية ومعدنية أو صناعات وسيطة (أو مصرح بها من مبدعيها)، بمعنى أننا لا يمكن أن نطلق على هذه المصادر ما يستعمل حاليًا فى بلادنا من مصطلح «الإنتاج»، فما يحدث هو استهلاك

لمصادر الطبيعة وتدمير للبيئة والمستقبل، ويصح أن نستبدل بكلمة «الإنتاج» مصطلح «الاستخراج».

تلك كانت البديهيات أما البراهين الاستنتاجية (التى توازى نظريات إقليدس، وقد طعمتها بشىء من الاستقراء الذى يقوم على الملاحظة الطويلة لواقع تشكل هذه البديهيات عناصره البنيوية الأساسية فى ارتباط فيما بينها داخل علاقات بالغة التعقيد) فتقوم على عمود أساسى أو ما نطلق عليه النظرية الرئيسية لمثلث التبعية الذى يتضح فى الشكل الآتى :




فرؤوس المثلث هى الإنسان والماضى والواقع، وكل رأس تصب فى الرأسين الآخرين وتنبع منهما، ويترتب على ذلك النتائج الآتية :

أولاً : إن البنية العقلية للإنسان تتشكل بمنظومة من القيم والرؤى تنبع من أعماق الماضى ومن دياجير واقع مظلم إقطاعى. وأن هذه البنية العقلية تعيد تشكيل كل من الماضى والواقع فى عملية مستمرة تتجه لانتخاب أكثر قيمهما سلبية.

ثانيًا : إن الماضى ليس ماضيًا على الإطلاق إنه نقطة متحركة مع حركة الزمان الفيزيقى بشكل القوة الفاعلة الرئيسية فى نسيج الواقع، وهو يستقل وينفصم من ناحية عبر نصوص مكتوبة وشفوية، رسمية وشعبية يستقبلها العقل من مراحل برمجته الأولى التى تمثل نظام تشغيله ولغة هذا النظام ومن ناحية أخرى يتلبس بعناصر الواقع المادية والسلوكية والقيمية ويشكل عناصر ابيسمولوجية لكل المعلومات التى يتم إدخالها فى العقل. والماضى أيضًا ينشطر شطرين ماض قومى للتابعين وماضى الحضارة الغربية تفرضه الحاجة الملحة للتكنولوجيا الغربية التى لا تكشف لنا إلا عن بقايا مائدتها.

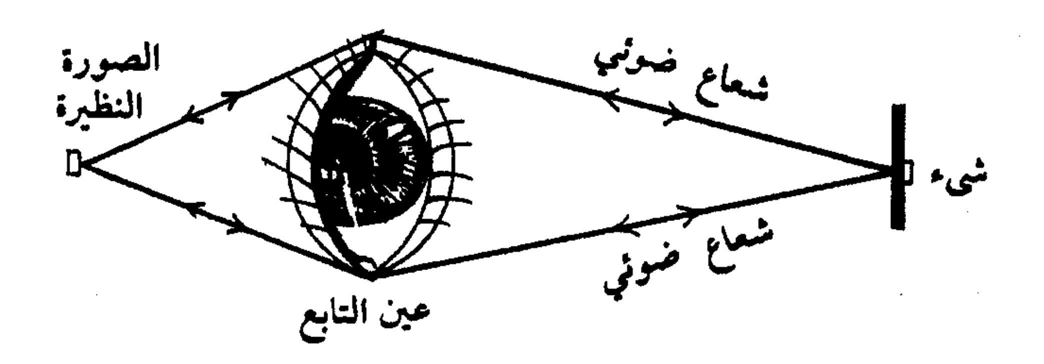
ثالثًا : إن الواقع إقطاعى التكوين بمعنى أن الكيان الاجتماعى هلامى وغير متماسك وليس مصدراً للتشريع وإنما مصدر التشريع هو الماضى بشطريه القومى والغربى، وهذا يعنى أن الملامح المعروفة للمجتمع الحديث غائبة ويحل محلها غيب الماضى الذى يفتت المجتمعات ويلحقها بالطبيعة، فتفلت سيطرة الإنسان عليها، ويترتب على ذلك أن الواقع بعناصره الاجتماعية والطبيعية يتوحدان ويخضعان لقوانين التعرية والترسيب والهدم من أجل البناء والبناء من أجل الهدم.

رابعًا: من المعروف أن رؤوس المثلث تمر بها دائرة محيطها يمثل حركة الزمان الدورية بين التعرية والترسيب والهدم والبناء، وهى حركة غير تاريخية يتوقف الإنسان فيها عن صنع الأحداث أو تحديها، بل يصبح هو من صنعها، وضحية مؤكدة لتحدياتها. إنه مثل الكربون ودورته المشهورة.

خامسًا : مركز الدائرة التى محيطها الدائرة المقفلة للزمان هى التبعية بعينها كنظام للوجود يتشكل من مجموعة محددة من صيغ الحياة التى تعكس آليًا البنية العقلية المشار إليها فى النتيجة (أولاً). ويصب فى بؤرة هذا المركز ثلاثة أنصاف أقطار متساوية من كل رأس من رؤوس المثلث وهى دائبة الحركة بين المحيط والمركز المذكور.

سادسًا : إن الشكل فى الرسم يتشكل من ستة أقسام كل قسم منها يمثل بديهة من البديهيات الستة، ونلاحظ انقطاع الإنسان (التابع) عن الغير المنتج، وضرورة مرور مصادر الدخل بالغير قبل استهلاكها، ثم ارتباط البديهيات الخاصة بالهوية (السباحة فى الحاضر، ثالثية العالم، شكلية الاستقلال) ببؤرة التبعية.

أما النظرية الثانية، (وهى تفصيل للنتيجة الأولى، ونتيجة منطقية للبديهيات (الست)، فهى الوضع الضوئى المعكوس للرؤية كما يبدو فى الشكل التالى :



من المعـروف أن الضـوء يقع على الأشـيـاء ثم ينعكس على بؤرة العين، ومنها يصل إلى المخ فيتم تمييز الأشياء ، والذى يحدث عند الإنسـان التـابع ، إنه ينظر للشىء (والشىء عندنا يمثل أى عنصـر من عناصـر الواقع القـومى والعـالمى أو أى مـشكلة من مـشـاكل ذلك الواقع)، ثم يبـحث عن صـورة نظيـرة له فى نسـيج المعلومـات التى تنتـجها الـوحدات البنائية لبنيته العـقلية، ثـم ترتد تلك الأشعـة إلى الشىء لتحديده على ضوء هذه الصورة النظيرة بصرف النظر عن أى عناصر جديدة أو مختلفة فى صورة الشىء المرئى. والصورة النظيرة انتقلت من الماضى (أو الأيديولوجية) عبر الأجيال وعبر تلبس هذا الماضى بالواقع فى نسيج معلومات المخ عبر البنية العقلية، ويترتب على ذلك تصورنا للعناصر البنيوية (الوحدات البنيوية) لمخ التابع كنتيجة لهذه النظرية، وكاستقراء لما تطرحه البديهيات الست ونتائج النظرية الأولى لمثلث التبعية وتتشكل تلك البنية تكوينًا بالغ التعقيد، حيث تبدو وحداتها البنيوية عبارة عن شبكات متداخلة من وحدات بنيوية أصغر، وهذه بدورها تتركب كل وحدة منها من شبكة ذرية، ومن الممكن تفتيت كل وحدة ذرية إلى وحدات نووية وهكذا أبدًا. وتوجد هذه الشبكات فى أزواج متقابلة أبدًا فى ثنائية للتضاد، كل زوج يحمل وحدتين بنائيتين كبريين أدمجنا فيهما الوحدات الأصغر، فقط لضيق المقام فى هذا المقال ولعرض صورة موجزة لبنية العقل التابع (فى صورته العربية التى لا تختلف عن أية صورة للعقل التابع إلا فى الدرجة) كما أننا لم نعرض لكل تلك الأزواج المتقابلة إلا فى

الحدود التى تخدم استراتيجية «عنوان» مقالنا: وتلك هى الأزواج فى تقابلها.

الثنائية الأولى: تتشكل من زوج: (وراثة/ ذاكرة) مقابل (ذاتية متغطرسة/ بيروقراطية نصية): والوراثة تتحدد فى الاعتماد المطلق على الغير، فالتابع فى حاجة دائمة إلى الشيخ الملقن أو الكبير المملى أو إلى الأقوى الطاغية ليتلقى منه المعرفة كمسلمات نهائية، عليه بحفظها وتنفيذها حرفيًا، وإذا لم يجد هذا المصدر للمعرفة تمثله فى أى صنم تاريخى أو معاصر وإذا عجز عن هذا التمثل يستعين بقوى غيبية لإمداده بالمعرفة، وتتشكل تلك المعرفة المستمدة من الغير العارف (ولقب العارف ساد صفة للشيوخ فى تراثنا، وبصفة خاصة فى جانبه الصوفى) المصدر الأساسى للصورة النظيرة فى مخزون التابع العقلى والتى يحاول أن يجعلها قالبًا تستوعب كل معرفة خارجية وتضاهيها وتواجهها بالحلول المسبقة.

ويترتب على هذه الوراثة نظام حياة يقوم على التلقين ويستنفر الذاكرة، ويملؤها إلى حد التخمة بكل الخبرات المنقولة عن الغير فى برمجة تقوم على الفوضى وتحول دون التخصص (السبع صنع فى ايديه، والهم جارى عليه)، ويصبح الحفظ مدار الجهد التحصيلى للمعرفة حتى تضنى الذاكرة وتمتلئ بالثقوب، وتتفشى ظاهرة السهو والنسيان والإهمال غير المتعمد (بيت المهمل يخرب قبل بيت الحرامى)، والتعميم والتهويم والفهلوة و«كانت على لسانى».. إلخ ويدعم ذلك التراث، فأعظم الألقاب للمشايخ كان «الحافظ بن

الحافظ»، ويصبح مدار العلم استيعاب أكبر قدر من المعرفة الموروثة، ثم اجترارها كما أن مدار السلوك هو سلسلة من ردود الأفعال التلقائية (الآلية)، ذات الصيغ الجاهزة. هذه الذاكرة المنهكة تركن إلى الكسل إذا وجدت ذاكرة خادمة لها، فيخضع السيد للخادم خضوعه لشيخه، إذا أحسن الخادم دور الذاكرة، وهذا سر سيادة الخدم وتسنمهم الحكم بشكل مباشر أو غير مباشر فى مسار الزمان العربى منذ انهيار حضارة العرب وحتى الآن. إن الذاكرة الهرقلية المهلهلة تساهم في تشويه صور الماضى الموروثة من ناحية، وتطبيقها على نماذج شديدة المفارقة لها فى الخارج.

ويقابل زوج (الوراثة / الذاكرة) زوج آخر هو (الذاتية المتغطرسة / بيروقراطية النص). فالشيخ بالضرورة منتفخ الأوداج يدعى التواضع لينال مزيداً من الثناء، وهو فى نفس الوقت مسحوق الشخصية أمام أى شيخ له أو سلطة أقوى فالشيخ الأكبر «ابن عربى» عندما دخل السجن اعتذر للسلطة بأن له شطحات! وتلميذ الشيخ يتباهى بقربه من شيخه أو بأية معرفة خصه بها أمام الغير الأقل قربًا ومعرفة، إن التابع يتعالى بمعرفته وشيوخه (معلِّميه) على من لا يعرف، ونموذجه حاليًا الصنايعى فى مصر وصلفه الشديد (الميكانيكى - السمكرى.. إلخ)، بينما عاش فترة من عمره يتلقى الصفعات من المعَلم، ويظل يتلقاها حتى يصير «معلما» وأثناء ذلك تتغطرس ذاته على كل «زبون» أو من هو أصغر منه فى المهنة، . إن الشيوخ أنفسهم يعلِّمون التلاميذ هذه الغطرسة باعتبارهم المثل الأعلى (وهم فى غاية الغطرسة)

وبتحريضهم الصغار على بعضهم، لقد كان يكلفنى الشيخ فى المكتب ثم المدرس فى الفصل بعقاب التلاميذ الخائبين ونظام «الألفة» أو «العريف» نموذج لتربية الصلف عند الصغير، وإجباره على التزلف والانسحاق أمام الشيخ للمحافظة على حقوق إجبار الآخرين على التزلف والانسحاق أمام هذا التلميذ المتزلف المنسحق والمتغطرس الصلف فى نفس الوقت، ويحدث لنا نفس الموقف أمام قوة الغرب ومعرفته، وما نطلق عليه فى معجمنا المعاصر «عقدة الخواجة».
وكلمة خواجة تصحيف لكلمة خوجة الفارسية ومعناها أستاذ أو معلم. ويصاحب الذاتية المتغطرسة «بيروقراطية النص» وهو مصطلح أحفره الآن حفراً، من البيروقراطية المسيطرة على السلوك الوظيفى كمظهر أكبر يوسع مفهوم البيروقراطية، فرغم اعتماد الذاكرة كمصدر أول للمعرفة فإن النص له قداسة اعتباراً من اللوائح وقواعد الروتين وانتهاء بأية ورقة مكتوبة، والسبب فى ذلك الأمية الشاملة لفقدان القدرة على القراءة والكتابة أو لافتقاد حيوية الثقافة. إن الناس تقبل الورقة المكتوبة وتلقى بها إلى جوار الحائط أو تحرقها حتى لا يطأها أحد. تناقض مرعب يوقف إنتاج نصوص جديدة، ويجعل السيادة لمن يحفظ أو يمتلك النصوص الموروثة. إن البيروقراطية النصية هى استهلاك لنصوص قائمة موروثة وإحجام عن إبداع نصوص جديدة تساير الظروف المتجددة للحياة. إنها تحول النصوص من الوجود الحى إلى ذاكرة الزمن، فبالضرورة التعامل مع النصوص هو تفسير لها متكرر يفقدها معناها ويضع الناس فى بلبلة فكرية وحيرة أمام ألف

مقولة حول نص واحد، فيحجمون عن الأخذ بأى من تلك المقولات حتى تأتى فتوى من شيخ أكبر، وتقف الحياة وتتعطل عجلتها عن الدوران، ويعجز الجميع عن اتخاذ القرارات إلا إذا أجبروا فينطلق القرار كرد فعل آلى صنعته صورة نظيرة موروثة داخل العقل أو نص نظير موروث خارجه.

الثنائية الثانية تتشكل من زوج : (خوف / عجز) مقابل زوج (اندفاع / طغيان) : تتشكل «عقدة خوف» دائمًا نتيجة عملية الإبصار الفيزيقية الأولى التى تشعر بعدم قدرة على التعرف على المرئيات الخارجية فى انتظار تفتيش الذاكرة والبحث عن الصورة النظيرة أو استفتاء الشيخ أو الأقوى أو الأكبر أو النص، وكما رأينا فإن الذاكرة تشوه الصور النظيرة فتزداد المفارقة بينها وبين الواقع الذى ينبغى أن يتقولب داخلها مع تجدده المستمر وتشوهه الشديد عندما يتقولب. إن لا شىء يكرر نفسه والتابع يرى كل شىء مكررًا ولا جديد تحت الشمس، إن المفارقة بين القالب (الصورة النظيرة الموروثة) والمتقولب (الواقع المتغير) تصيب التابع بالخوف والتردد، وقد يقضى ردحًا من الزمان خوفًا من الخطوة الأولى التى تمثل شبحًا مفزعًا، ولا ينطلق إلا كرد فعل إجبارى، أى ينعدم فيها التخطيط والتدبير، وتحدث «عقدة العجز نتيجة كثرة الخطأ والفشل والوقوع فى المآزق لأن ردود الأفعال وقولبة الواقع تتعامل مع العالم الخارجى تعامل الأعمى الذى يرفض استعمال عكاز أو الاستعانة بمن يهديه الطريق، فتكثر عثراته فيقرر عدم الخروج ويصبح رهين المحبسين «العمى وبيته». إن الفشل المستمر

وكثرة تردد الخطأ يخلق فقدانًا للثقة يصيب الإنسان بالعجز الذى قد ينعكس على كل علاقاته.

ويقابل الخوف اندفاع أحمق يخلو من شروط المغامرة. إن من يخاف من الخطوة الأولى، قد يفرح فجأة إذا وجد مطابقة آنية بين ما يبصره فى الواقع وبين الصورة النظيرة الثابتة فى ذهنه فينطلق كالصاروخ مُصدرًا الأحكام أو متخذًا للقرارات والحلول، أيضًا قد تتأخر الخطوة الأولى، لكن إذا خطاها التابع فإنه يصبح أسير تقنية الخطوات التى تحتمها صورته النظيرة المخزونة فى ذاكرته فتتدفق الخطوة الأخيرة ربما قبل الثانية فى اندفاع تطيش منه الأهداف وتتباعد، ومع ذلك فهو عنيد لا يستمع إلى أحد، وتأخذه العزة بالخطأ فيتمادى فى سطوة لا تقبل المناقشة، ويحلو له أنه قد غطى عجزه، فيتحول العجز إلى سلطوية تمارس أبشع دكتاتورية، إنها الدكتاتورية التى تخشى التنازل لحظة عن سلطتها، فيظهر عجزها وخوفها، وتتسع تلك السطوة لتتجاوز الموقف الذى تبدد فيه (ظاهريًا) الخوف والعجز إلى كل المواقف.

الثنائية الثالثة : الزوجان المتقابلان فى تضاد فى هذه الثنائية هما : (التصلب / المقاومة) (المرونة/ الطوائفية) : التصلب عنصر نابع من قداسة الشيخ (أو الكبير أو الأقوى) وثبات الصور النظيرة فى المخ التى حفرها هذا الشيخ، كذلك ينبع من قداسة النص والعادات والتقاليد ومنظومة القيم، فمن الصعب أن يعيد التابع النظر فى رأى أو مشروع أو قرار بل هو سعيد بما أوتى، فقد كلفه غاليًا الإقدام على

الخطوة الأولى، ومن ثم يصيبه الحماس لرأيه أو مشروعه أو قراره ومن ثم تتولد عنده مقاومة لأية محاولة للحوار معه، والمقاومة مصطلح اشتققته من فيزياء الكهرباء حيث يقاوم السلك (الوسط عمومًا داخل الفيزياء) مرور التيار الكهربى به فتتحول الطاقة الكهربائية إلى طاقة حرارية تحرق هذا السلك، ومن ثم فالتابع يقاوم الاتصال الاجتماعى، فلا يستمع إلا إلى نفسه، كما أنه ينكر وجود الخصم والأفكار المضادة إلى حد التطرف. ومن ثم فالبيئة الواقعة تحت ظل التبعية بيئة صالحة للإرهاب والتطرف والتفكك الاجتماعى وتقوقع الأفراد داخل الذات المنهارة ويقابل هذا الزوج (التصلب/ المقاومة) زوج آخر نقيض (المرونة/ الطوائفية). والمرونة هى تحول التابع إلى قطعة من الصلصال فى يد الشيخ أو الأكبر أو الأقوى حيث يغير رأيه من النقيض إلى النقيض وهو اليوم عدو صديق الأمس وصديق عدو نفس الأمس، ينادى ببناء ما هدم وهدم ما بنى طبقًا لمزاج الشيخ المتقلب الذى يخلق عند المريد نفس المزاج، فمثله الأعلى «شخص» متقلب الأهواء وليست «فكرة» مبدئية على قدر من الثبات والتحول فى منطقة نابعة من جدل الأفكار مع الواقع والتاريخ. وهذه المرونة تجعل التابع غير قادر على الانتماء العام لمجتمع ووطن فهما فكرتان ومؤسستان أكبر من الأشخاص وأعلى من الفردية، ولهذا يبحث دائمًا عن انتماء شخصى قد يحمل واجهة الدين أو الثورة أو الحزبية أو الأيديولوجية أو النسب أو . . إلخ، وقد أطلقتُ على ذلك «الطوائفية» اسم نسب مشتق من كلمة الطوائف التى نسب إليها ملوك

الأندلس بعد تفتته، وهذا يفسر ما يحدث فى العالم العربى ونموذجه الصارخ لبنان والسودان، ثم كل العلاقات العربية - العربية

الثنائية الرابعة: تتشكل من الزوجين (خيال/ واقع) ثم (وهم/ علم زائف): والصورة النظيرة شأن كل الصور العقلية خيال مطلق، وحيث إن الواقع يتقولب داخلها فيتحول الواقع إلى خيال والحقيقة إلى مجاز، وحيث إن المجاز لابد من عبوره (بتفسيره) لفهم الواقع، وبما أن التابع لا يفعل ذلك، ويصدر أحكامه بناء على الخيال والمجاز حال تعامله مع الواقع، فإن الواقع يتحول إلى وهم وصور هلامية تتفكك حواشيها وتتلاشى فى الفراغ. وهذه الصورة الهلامية يطلق عليها التابع لفظ العلم فهو علم زائف.

الثنائية الخامسة: تتشكل من زوجين: الزوج الأول: (تفكك السياق/ تبديد الثروة) والزوج الثانى (البلاغة الفاحشة/ الثراء الفاحش). وتفكك السياق مصطلح محفور من علم اللغة، وهومحاولة لكشف العلاقة بين اللغة والواقع. إن لغة التابع أشبه بلغة الطفل تتوالى العبارات دون سياق والأهل من حوله يصفقون وهم لا يفهمون إلا ما يرغبون فى فهمه. إن اللغة عند الطفل هى عمله الذى يحقق به كل مطالبه ويحرك الجميع لتلبية تلك المطالب، وهكذا تتحقق للطفل مطالب لم تخطر له على بال مما يشجعه على الاستمرار فى ممارسة العمل عبر اللغة، ومثله التابع تحل اللغة عنده محل العمل، بمعنى تصير اللغة هى الواقع نفسه وتتداح المسافات بين الواقع واللغة فيتداخل النظامان، فتفقد اللغة سياقها، ويفقد الواقع سياقه،

وهكذا يتم مواجهة الثروة بالكلمات بدلاً من العمل، فيتحرك مع العبارات المبددة بلا سياق وتقف عن النمو وتتلاشى كما تتلاشى الكلمات، ولكنها حال تبددها تقع فى بعض الأيدى دون الأخرى فيشيع الثراء الفاحش والفقر الفاحش لمحدودية الثروة، كما يتم الإعجاب بالكلمات بدلاً من العمل، فيسعى الناس للثروة بها، ويحاولون تحسين العبارات دون رابط، فتنمو البلاغة الفاحشة، كلمات مليئة بالأوهام والأحلام لا رابط بينها، تهدهد الصور النظيرة ولا تقدم شيئًا. ولطالما استمعت من أصدقاء: ما رأيك فى الخطبة الأخيرة للرئيس؟ ولم يسألنى أحدهم عن رأيى فيما أقدم عليه الرئيس من عمل لأنه لا يعمل شيئًا سوى كلمات تتحول إلى أشياء ملموسة دون سياق، أى توجيهات، وسياسات مرتجلة عند أعضاء الحكومة:

سياق مبدد/ ثروة مبددة/ بلاغة فاحشة / ثروة فاحشة (يقابلها فقر فاحش).

إن أزواج الثنائيات المتقابلة بلا حدود، وكل زوج يتكون من وحدات أصغر فأصغر حتى التفتيت الذرى وكل ثنائية من زوجين متقابلين تحمل فى ثناياها كل الثنائيات الأخرى، ولهذا نكتفى بما أوردنا. ويصبح علينا أن نطرح سؤالاً استقرائيًا لأحداث الزمان (ولا أقول التاريخ) عند التابعين لمعرفة كيفية نشوء التبعية: كيف صار التابع تابعًا والمستقل مستقلاً؟

الإجابة ليست سهلة، ولكنها ممكنة. تنشأ التبعية نتيجة سيادة «أيديولوجية ما» تطرح مقولة حول نفسها تجعل منها الصحيحة وكل

أيديولوجيـة أخرى أو لا أيديولوجية أمرًا خاطئًـا تمامًا. وسأضرب مثالاً معاصرًا هو مثال: ألمانيا الشرقية. فهذا الجزء من ألمانيا لا يختلف عن الأجـزاء الأخــرى، ولكنه منذ عــام ١٩٤٥ فــرضت عليــه الأيديولوجية الماركسية، وها نحن فى عام ١٩٩٠: ألمانيا الغربية التى انطلقت من نفس النقطة التى انطلقت منها ألمانيا الشرقية هى (تقريبًا) أكثر بلاد العالم تقدمًا، بينما ألمانيا الشرقية فى مستوى قريب من كل دول العـالم: فقرًا، وبطالة، وتأخرًا وتدميرًا للبيئـة. السبب شديد الوضــوح هو فـرض ايديولوجـيـة مـعينة على ألمانيـا الشـرقـيـة هذه الأيديولـوجـيـة مـلأت العـقل الألمانى الشـرقى بصـور نظيـرة، وهذه الصور بالضرورة ترتبط بشيوخ: ماركس، لينين، ستالين.. إلخ. وهكذا انصرف بحث الألمان الشرقيين إلى العيش فى ظل: «ما كان»، وليس فى ظل: «ما سيكون». فصار ما هو كائن ليس أكثر من عبارة: ما كان، و«ما كان» هنا تعد واقعًا ماضيًا للاتحاد السوفييتى حيث عـاشت أفكار كارل ماركس كما لو كانت هو شخصيًا يعيش وحيث عاش لينين وستالين، وهذا الأمر لا علاقة له بواقع ألمانيا الشرقية الذى تقـولب فى خيـال صور نظيرة، ملأت حياة الألمان الشرقيين بالوهم والعلم الزائف، وهكذا انطلقت ألمانيـا الشـرقـيـة من حـاضـرها إلى ماضى الاتحاد السوفييتى فى جو خلق تبعية تحمل أعباءها اليوم ألمانيا الغربية.

ولكن كـيف وقعنا نحن تحت نيـر التبـعيـة؟ هذا هو السـؤال الذى يستحق إجابة تملأ عددًا من الكتب لكننى هنا سأختصر الجواب.

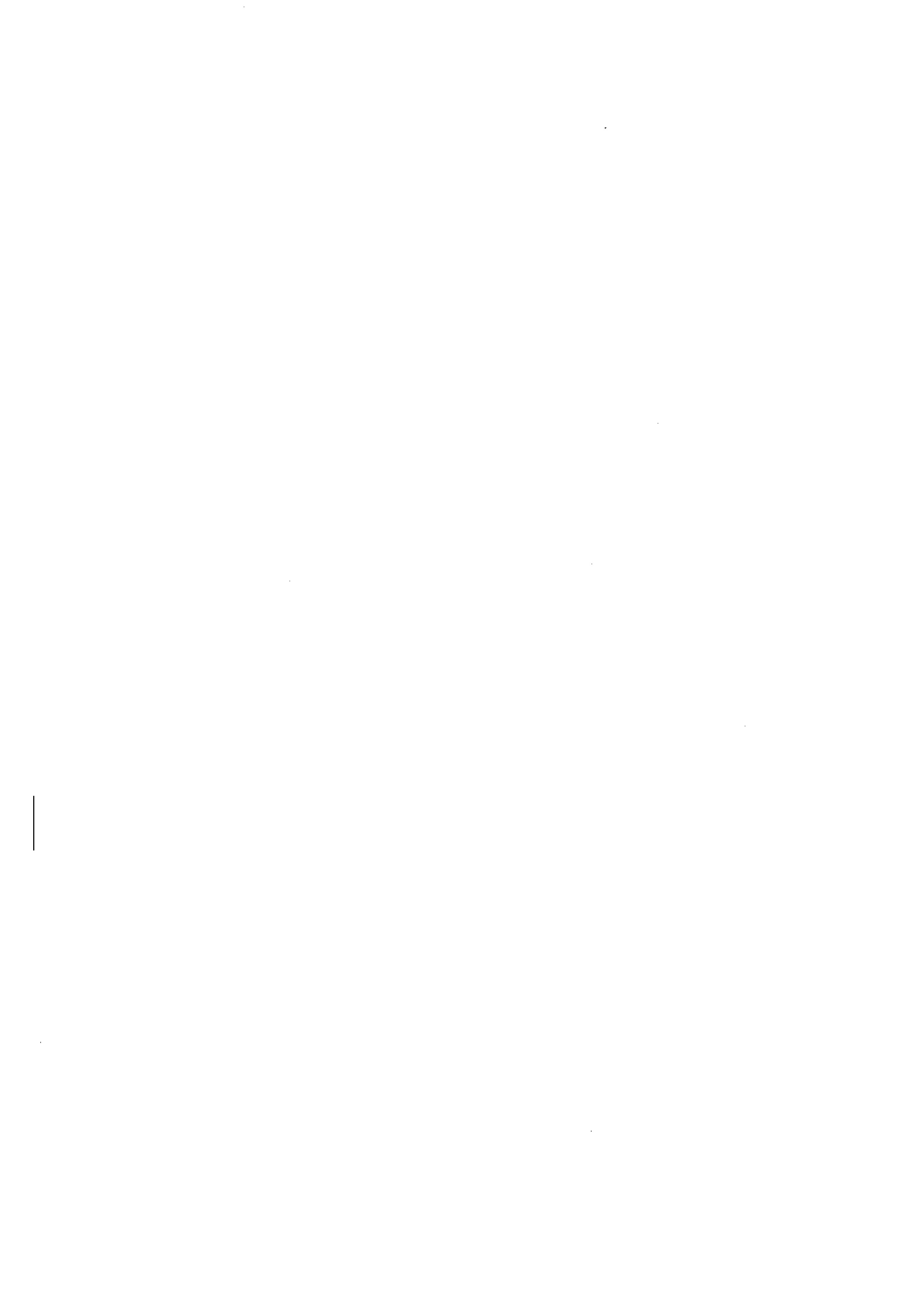
الإقطاع (مهما كان شكله) يحمل فى ثناياه أيديولوجية وحيدة مثل الماركسية! الإقطاعى (يكاد ينتسب نسبًا إلهيًا) صاحب حق مطلق رزقه الله إياه، وكل ما عداه ملك له، هذه الأيديولوجية تجعل من كل عامل عند الإقطاعى مخزنا لصور يعتقدها الإقطاعى. وقد خضعنا لإقطاع متجدد منذ أحمد بن طولون حتى عصر محمد على يحمل نفس الأيديولوجية. وعندما حاول جمال عبد الناصر أن يحررنا من الإقطاع حررنا بأيديولوجية تخلق التبعية عند التابعين، فحملنا إلى آفاق أشد أسى فى التبعية، وعندما حاول أنور السادات أن يحررنا من أيديولوجية جمال عبد الناصر ألغى الحراسات، أى أعاد أيديولوجية الإقطاع، وهكذا فى تاريخنا (أقصد زماننا فليس لنا منذ قرون تاريخ بل زمان دورى طبيعى) المعاصر تداولت علينا الأيديولوجيات، فلم تتح لنا فرصة التخلص من البنية العقلية التبعوية، بل تم ترسيخها فيما بيننا.

والخلاصة أن التبعية ليست إلا بنية عقلية تعكس واقعًا انعكاسًا مرآويًا، وليست إلا واقعًا يعكس بنية عقلية انعكاسًا مرآويًا، التفاعل بينهما دائم وفى اتجاهين متعاكسين يكرس كلٌّ منهما الآخر.

والنتيجة أننا رجال أطفال. وأقصد برجال (إنسان) نسلك تجاه الكبار سلوك الطفل، لا يمل من التكرار، ولا يتعلم من تجربته إلا قوالب، يدهنون ثدى أمه بالمر، فيرى أن كل ثدى مر، فيرفض كل ثدى، الرجال التابعون طبقًا لكل ما عرضته يتعاملونَ مع الكبار تعامل الأطفال، ينتظرون التلقين، ولا يرسمون مستقبلهم بأيديهم بل إنهم

يكررون ماضيهم وماضى غيرهم، يتعلمون من الماضى القومى، أو ماضى من هو أقوى منهم، كيف يكونون نسخًا لا أشخاصًا. فى حياتهم يكررون نفس اللعبة لا يملون: تبدأ لعبة مع طفل وتنهيها فيقول لك: ثان، كرر! فتكرر ولا يريد الطفل أن يخرج من اللعبة أو ينهيها إلا إذا نامَ، والتابعون إما مكررون أو نائمون. رجال أطفال. العالم العربى يعيش اليوم عصر الرجال الأطفال. أطفال فى سلوكهم تجاه الغير (على أنه أكبر جدًا أو أصغر جدًا) وتجاه أنفسهم (على أن المزاج هو المحدد للعلاقة التى ينبغى لها اليوم أن تقوم بصرف النظر عن طبيعة العلاقات التى كان عليها الأمر أمس). نحن تابعون بغير استقلال نتطلع إلى الآخر على أنه الأمل والمستقبل سواء أكان هذا الآخر ماضيًا أو شيخًا أو كيانًا أكبر وأقوى وسواء أكان معاديًا أو صديقًا، إننا كعرب نعيش حياتنا فى عصر «الرجال الأطفال». وكل طفل مصيره بيد ولى أمر «الطفل التابع». ولنا أن نسأل الآن فى آخر هذا المقال: من ولى أمر الرجل الطفل العربى؟ إجابة هذا السؤال فى السطور السابقة من هذا المقال لمن أراد إجابة، وفى واقعنا لو تعلمون! انظر لتلك الدائرة المغلقة لأحداث تكرر نفسها، وكوارث تتوالى تترى فى محيط لا مركز له إلا: التبعية! لا نعى بها، فلا نعى بأنفسنا، فتنغلق الدائرة وتدور، ويعلو قانون المماثلة فوق كل قانون.

# مقدمة فى تاريخ الأدب العربى



# تأمل مبدئى

منذ رفاعة الطهطاوى وأستاذه حسن العطار وحتى اليوم حظى الأدب العربى باهتمام رجال أجلاء أفنوا حياتهم فى إخراجه من خزائن المخطوطات إلى الواقع الحى المعاصر (المحقق المطبوع) ثم دراسته والتأريخ له. وقد أدى ذلك إلى أكبر قدر من التداول للنصوص مكتوبة، فبدأ الإحياء (وهو مستمر على مستوى شعبى إلى حد لا بأس به، فمن يقرأ فى حسبانى لا يتجاوز ١٠٪ على أحسن تقدير بمفهوم ما للقراءة، نعنى به التعامل مع التراث القديم أو الحديث)، بعد أن بدأ على مستوى المبدعين و الباحثين من علماء الأدب والفكر.

ولم يقتصر الأمر على الدراسة والإحياء، وإنما تجاوزها إلى التنمية والتغذية بالترجمة إلى العربية على مستوى الإبداع والفكر الأدبى النظرى والتطبيقى. فأدخلت أنواع أدبية جديدة ومعها اتجاهات وفلسفات وأفكار بكثافة لا نظير لها لكثافة إنتاج هذا العصر من هذه الإبداعات والأفكار. ومع تعدد المداخل لدراسة الأدب، فإن هذه الدراسات جميعا كان يغلب عليها استراتيجية الإحياء، لم تكد تتجاوزها فوقعت فى النمطية نتيجة استجابة تلقائية لهذا الاحتياج التاريخى المفروض: الإحياء، دون التنبه لذلك.

وأدى هذا إلى خصائص إحيائية للدراسات من موسوعية وتعميم ووصف وتقييم أخلاقى، والدخول فى أنماط تدور حول نفس المحور. فتم افتقاد الطريق، وتوقف الاجتهاد.

ولمواجهة ذلك لابد من أن يتحول الاتجاه الإحيائى إلى اتجاه ناهض وتنويرى فى آن بمعنى لا بأس من السعى لاكتشاف ظواهر عامة ممتدة عبر الزمان، والعمل بشىء من الموسوعية والتعميم دون التوقف عن التنقيب ودراسة التفصيلات بدقة وتحليل. أى أننى أتصور تاريخًا للأدب إحيائيًا فيه شىء من التعميم غير قليل مصحوبا بدراسات تطبيقية تحليلية لأعمال أدبية من قصيدة إلى قصيدة، ومن عمل نثرى إلى عمل آخر، ومن شاعر إلى شاعر، ومن كاتب إلى كاتب، ومن عصر إلى عصر، وهكذا، الاتجاه التعميمى يستقبل نتائج هذه الدراسات النقدية التطبيقية ويستخرج دقائق تخرجه شيئًا فشيئًا عن التعميم والإحيائية. إلى: التنوير والحداثة. الاتجاه التعميمى ينتقل إلى تأريخ للأدب من ناحية واستكناه لنظريته من جهة أخرى.

وقد حاولت منذ سنين - وما زلت أحاول - التأريخ للأدب العربى فى المغرب ثم فى المشرق. وطوال الوقت عجزت عن اكتشاف منهج يعيننى على القيام بهذه المهمة ولو بشكل استكشافى. وكانت الأسئلة تتوالى دون إجابة. تتراكم الأسئلة، وتكون إجابة السؤال سؤالا آخر. وتكثر الحيرة ويتوه الطريق. هذا أحد همومى المستمرة التى أطرحها فى هذه المقدمة.

فمثلا أطرح هذا السؤال عند نظرى إلى القصيدة العربية بنفس الصيغة التى طرحها المتنبى:

**إذا كان مدح فالنسيب المقدم**

**أكلُّ فصيح قال شعرا متيم؟**

ما قصة النسيب المقدم «كما يقول المتنبى» فى مقدمة القصيدة؟ إنه تحول فى بنية مقدمة «بكاء الأطلال» الجاهلية. لكن، ما قصة بكاء الأطلال؟

يقول الطرطوشى فى سراج الملوك، أنه سمع بالعراق:

**أيها الربع الذى قد دثرا**

**كان عينا ثم أضحى أثرا**

**أين سكانك ماذا فعلوا**

**أخبرن عنهم سقيت المطرا**

**ولقد نادى مناد لهم**

**رحلوا واستودعونى عبرا**

إن تساؤل المتنبى مشروع. لماذا بكاء الأطلال؟ لماذا تلك القداسة للمقدمة الطللية فى مطلع كل قصيدة، علما بأن الشعر ديوان العرب؟ لماذا هذا التشاؤم الذى تحكى عنه المصادر العربية القديمة عند افتتاح القصور العظيمة، ورؤيتها أطلالا فى قريب عاجل، حتى أن

الطلل هو الغائب الذى صنع الشاهد (القصر) دليلا على وجوده؟ لماذا كانت الأطلال مكونة من شعائر محددة تشير إليها النصوص؟ إنها الوقوف إجلالا واعتبارا ثم البكاء، والاستسقاء، والدعاء، واستعادة الزمن الضائع: هناك لحظتان، لحظة الوقوع فى الحب وهى لحظة غارقة فى قاع الزمان، ثم لحظة رحيل المحبوبة وقومها فى شعائر محددة ويقف الشاعر يودعها باكيا خائفا عليها أخطار الرحلة وجَوْب الصحراء، وتلك اللحظة رغم أنها تالية للحظة السابقة إلا أنها أيضًا غارقة فى الزمان الراحل . . ثم يثب الشاعر للحظة الحاضرة التى يبدأ بها نص الأطلال دائما صراحة أو ضمنا . . إنه يمر بالطلل، ويقف أمامه إجلالا وكرامة (كما يقول المتنبى). لكنه لا يقف وحده بل مع صاحبين، أو ربما أصحاب، ثم فجأة بعد الوقوف والبقاء والتذكر (ساعة من الزمان). ينصرف وحده ليُمْضى الهمَّ منطلقا فى رحلة عشوائية لاختراق الصحراء وتحديها. مَن هذان الصاحبان أو من هؤلاء الأصحاب؟

إن رسوخ فكرة بكاء الأطلال فى التاريخ الأدبى العربى، وارتباطها بنظام للحياة يتشاءم من إتقان البنيان لتوقع المستقبل الطللى لها، بل الماضى الطللى، «فكل قالب طوب فى بناء جديد قد يكون إنسانا كاملا بلى جسمه، وصار ثرىً صنع منه القالب. إننا نعيش مع الأسلاف ونتنفسهم: وها أنا أحكى أمرا أصابنى طيَّش عقلى وبلبل حزمى ولا يزال مرآة حتى يوارينى التراب. وذلك أنى كنت يوما

بالعراق وأنا أشرب ماء فقال لى صاحب كان له عقل : يافلان لعل هذا الكوز الذى تشرب فيه الماء كان إنسانًا يوما من الدهر فمات فصار ترابًا، فاتفق للفخارى أن أخذ تراب القبر ، فصيّره خزفًا سواه بالنار ، فانتظم كوزًا وصار آنية تمتهن وتستخدم ، بعد ما كان بشرا سويًا ، يأكل ويشرب وينعم ويلذ ويطرب»[١] . ثم يعقب الطرطوشى «فإذا الذى قال من الجايزات ، فإن الإنسان إذا مات عاد ترابا كما كان فى النشأة الأولى ، ثم قد يتفق أن يحفر لحده ويعجن بالماء ترابه فيتخذ منه آنية تمتهن فى البيوت أو لبنة تبنى فى الجدران ، ويطين به سطوح البيت ، أو يفرش فى التراب ، فيوطأ بالأقدام . . وقد يجوز أن يغرس عند قبره شجرة تنبت ورقا وثمرة فترعى البهايم أوراقها ويأكل الإنسان ثمرها . إن علاقتنا الخاصة بالقبور والموت وما يصحبها من شعائر هى منظومة من المعتقدات الشعبية .

وهكذا (على سبيل المثال) ، «لما رجع على من صفين ، فإذا هو بقبر . . . ثم مضى فإذا (قبور) ، فجاء حتى وقف عليها ، فقال : السلام عليكم أهل الديار الموحشة والمحال المقفرة ، أنتم لنا سلف ، ونحن لكم تبع عما قليل لاحقون ، اللهم اغفر لنا ولهم . . . طوبى لمن ذكر المعاد . . . ورضى عن الله تعالى . ثم قال : يا أهل القبور أما الأزواج فقد نكحت ، وأما الديار فقد سكنت ، وأما الأموال فقد قسمت ، فهذا خبر ما عندنا فما خبر عندكم؟»[٢] .

إننا أمام نص هام نثرى لا يختلف عن بكاء الأطلال الشعرى ،

فـالنص يبـدأ بـالوقـوف ويخـاطب أصـحـاب الأطلال (أهل الـديار الموحـشـة، والمحـال المقـفـرة)، وهو نفس خطاب الشـاعر لـهم ونفس وصفـه لديارهم، أمـا الجديد فهـو وصفـهـم بالسلف، وسؤالهم عن الغيب.

إن كل الشـواهد تشير إلى قـدم الظاهرة وانتـشارها كـمنظومـة من المعتقدات الراسخة التى تفرض نفسها كتقاليد فى الشعر، وفى النثر، وفى الحيـاة. إننا أمـام طقس فـولكلورى شعـائرى يشـير إلى أصله الدينى. إن فرعون مصر يحمل جثة يعقوب والد يوسف بعد موته إلى فلسطين، ويبـقى فى المقـابر بجـانب التـابوت أربعين يومـا قـبل دفن التابوت، هذا ما تقوله التوراة، وما يفسر احتفالنا بأربعين الميت. إن بكاء الأطلال طقس دينى جنائزى (على أفـضل تقـدير) أو لـون من عبـادة الأسلاف، حيث يقف العابد مع أصحـابه يقصـون أو يمثلون (وهذا مـا يبـدو من وصف امرئ القيس لنفسه عند رحيل المحبوبة وأهلهـا) أسطورة تحكى حياة السلف. إن مـا يشـاع عن تعليق بعض القصائد على الكعبة يدعم الوراثية الدينية الأسطورية لبكاء الأطلال، ولعلهـا (الأطلال) شعيرة لدين قـديم يعـود لعصـور ازدهار الجزيرة بالحياة والمطر قبل العصر الجاهلى، وربما من الأرجح أنه طقس مثل طقس الاستسقـاء برز مع بداية الجفاف. إن القرآن الكريم يشير إلى كوارث وهلاك كثير من الأمم فى الجزيرة العربية قبل الإسلام، ولعل هذه الكوارث كـانت وراء طقس الأطلال، ضـمن طقـوس أخرى فى

ديانات عبادة السلف. لقد حاول العرب بعد الإسلام محو تراثهم الأسطورى من ذاكرتهم، ولعلهم نجحوا فى ذلك عن عمد أو عن صدفة ارتبطت بحياتهم الشفوية، التى لم تعرف التدوين إلا مع القرآن الكريم، ثم بعده بقرن تجرأت على تدوين الحديث، وبعدها بعقود بدأ تدوين اللغة. . إن المسافة الزمنية مع التحرج الدينى كافية لكبت بعض عناصر الذاكرة، وتحويلها إلى صورة أخرى، فالوشم والحناء على كف النساء وأقدامهن (وربما الرجال) محاولات سحرية لتنفس تاريخ مكبوت. إن تقليد بكاء الأطلال جزء من منظومة لتنفس تاريخ دينى مكبوت وهو أمر لا يبتعد كثيرا، بل هو جزء مكمل من تراثنا الشعبى المعاصر الخاص بطقوس وكتب الحديث عن عالم القبور لهو دليل صارخ على وجود عقل جمعى موروث يحمل فى معاناة مذهلة الأديان القديمة فى تراكمها وعلى رأسها عبادة السلف، وهى عبادة تتمثل ضرورتها النفسية فى الصحراء بأنها العلامة الوحيدة على استمرار الوجود، وهى الوطن الوحيد الذى يمكن الانتماء إليه. إن أنساب النبالة فى أوروبا شيء واقعى ترتبط بميراث مادى ونفوذ سياسى وأدبى، وتاريخ، أما الأنساب العربية قبل الإسلام فذات وجه دينى ووجودى، فإذا لم يوجد وطن، فلمن يتم الانتساب؟ ولهذه الأهمية البالغة للأنساب لابد من سند من القداسة يبقيها ويحميها، وهى عبادة الأسلاف، فآلهة القبائل العربية فى بنتيون الكعبة (أو مجمع الآلهة) هى أسلافهم، وسوف يتحول ذلك (ضمن سلسلة

واسعة من التحولات للأديان القديمة ذات الآلية المذهلة فى البقاء والخلود) إلى عبارة فى الإسلام اسمها السلف الصالح، وستظهر أجيال من التابعين فى تتابع لا نهائى، ويأسرنا الماضى، فنأخذ ديننا ومعرفتنا كما يقول ابن عربى منتقداً «ميتا عن ميت». لم يسيطر ويستعبد الماضى أمة مثلما يفعل مع أم «نمط الجنوب الصحراوى»، أقصد العرب.

عموما رؤية تقليد (أو شعيرة وربما طقس) المقدمة الطللية بهذا الشكل يجعلها مفهومة ويفسر بقاءها إلى اليوم، كما يفسر بكاء العرب المستمر على اللبن المسكوب، فالعرب تبكى اليوم على رفضها لقرار تقسيم فلسطين عام ١٩٤٧، والعرب اليوم والفلسطينيون خاصة يبكون لرفضهم كامب ديفيد الأولى وما عرضته عليهم، وهم أيضًا يبكون على رفض كامب ديفيد الثانية، وما زال العرب يبكون على الأندلس «الفردوس المفقود» منذ أضاعوها حتى اليوم. إنه دين عبادة الأسلاف عندما يتحول إلى ثقافة.

لكن ليس بكاء الأطلال حـزنًا على طول الخط، بل العكس هو طرب وبهجة وسرور، شأن كل الشعائر الدينية، فالأديان هى التى أبدعت الأعياد واحتفالات البهجة والسرور، والمصريون يحتفلون بأهم أعيادهم الدينية (عيد الفطر) فى المقابر، وهذا ليس بدعا، فعيد الحصاد الوثنى عند الرومان كان يتم الاحتفال به فى المقابر لمشاركة الأسلاف البهجة، وكلمة مأتم بالعربية معناها حفل ابتهاج سواء كان

عرسا أم جنازة، وأصل الغناء العربى وموسيقانا النواح، وكلمة طرب تعنى السرور والشجن معا، وهما وجهان لعملة واحدة هى: «بكاء الأطلال»، حتى أن العربى الجاهلى، إذا كان صاحب ثأر وأعلن الحداد، فمن بين عناصر إعلانه ألا يتغنى لطلل أو بطلل، وألا يطرب ويفرح بهذا الغناء، إنه يهجر الأطلال، وتخرجه من رحمتها حتى يثأر لميته أى لسلفه حتى لو كان ابنه، فالموت يمنح الراحل السلفية.

وارتباط تقليد الأطلال بالفرح كمقدمة للقصيدة العربية الجاهلية ضمن لنفسه البقاء بسبب أنه تحول فولكلورى عن بناء أسطورى سابق عليه، كما ضمن للعرب أو سكان الصحراء القاحلة وجود الوطن وسلسال النسب والبقاء، كما حفز إلى سلسلة من التحولات التى تبدأ بتدهور الأسطورة فتتحول إلى تقاليد وموروث فولكلورى، وهذا بدوره وإن بقى لا تتوقف فيه التحولات، وهكذا تتحول الأطلال من أسطورة تمثل فى معبد الأسلاف، إلى تقليد شعرى يعطى القصائد قداسة تلحقها ببيوت الآلهة، إلى نسيب يشير إليه المتنبى فى بيته السابق لكل هذا الكلام، أو إلى وصف للطبيعة مع ظهور الحدائق العربية والأفنية ذات النوافير فى مدخل القصور والمساجد، فتمضى تحولات القصيدة مع تحولات فن المعمار الرامز للأيلولة الطللية.

إن التحولات من الكل الأسطورى إلى الفتات الفولكلورى تطبع قاعدة ونظام التطور فى العالم الجنوب صحراوى، إنها تحولات تشبه التعرية والترسيب فى الجغرافيا، إرادة الإنسان فى تحريكها محدودة

سوى الطرب بها أو رفض الطرب بها، لونان من الماسوشية يصاحبان سادية عند البطريرك وبطانته يحاكيها الجميع. إن تكرار الوحدات فى اتجاه المركز سيحولها فى ظل التحولات إلى مرايا متكررة متقابلة تعكس صورا لا نهائية للمركز، تشوه الأصل وتنوع حجمه طبقا للآلية الفيزيقية لعمل المرايا. فهذه الصور تحولات فى شكل المركز، وليست تطورا وتجديدا فى معظم الأحوال كما ظن بعض المؤرخين. وهذا يفسر الثبات والتحول فى تقاليد الشعر العربى، ولا سيما فى شكل القصائد الطوال، ونحن فى حالة صحة فرضنا - عن الأصل الأسطورى لبكاء الأطلال - فإن نظرية طه حسين (وغيره من المستشرقين) عن الانتحال صحيحة نسبيًا، إذا صرفنا النظر عن هذا المصطلح القانونى أو الأخلاقى «الانتحال»، وحل محله صياغة التحول من الصورة الوثنية إلى صورة يقبلها الإسلام وترضى النمط الأعلى والعقل الجمعى الذى وإن كان قد حذف من القصيدة الجانب العقدى، فإنه أبقى دون وعى ذلك الجانب فى أساليب لا تسىء للعقيدة الجديدة، لكنها لا تمحو هويته التى ارتبطت بعقائد سابقة.

إن القصيدة العربية ظاهرة محيرة تستمر ما يقرب من ١٦ قرنا تحمل نفس المسميات والخصائص، وكأن الشعراء قد قالوا كل شىء وأفنوه قبل عنترة فيتساءل هو الآخر: هل غادر الشعراء من متردم؟ وغيرهما لا يرى «الناس الشعراء» إلا قائلين معادا من القول مكرورا. ومع هذا الاشتراك هناك تنوع. إلى أى حد كان هذا التنوع تنوعا فى الكيف؟

وهل حقا يمكن أن تؤدى قيود الشكل القاسية وأصول حرفة الشعر المحدودة إلى الخروج عن أنماط قد تحددت سلفا؟ فصورة الممدوح (المركز) لابد أن تتجلى مرسومة بسلم القيم (ومنظومة أسطورية مائية) التى تشكل صورة البطل البطريرك فى عين العربى تارة أو فى صورة الإنسان المحبوب الموهوب الذى يملأ جماله العيون أنسا وهيبة كما ينبغى لمن يحتل المركز الوجودى أى السلطة . ما علاقة العناصر الثابتة فى الشكل والقيم بإمكانية التنوع؟

لقد أجهد النقاد القدماء أنفسهم فى البحث عن السرقات الشعرية ناسين أن ضيق الحدود المتاحة للشاعر أدخلته فى أنماط لا خروج منها . فقط فرصة اختياره فى البحث عن موطن للنمط دون موطن ، وموطن النمط ليس إلا شاعرا قديما فحلا . إن مسلم بن الوليد وأبا نواس - كما يقول صاحب الأغانى - على لسان أبى تمام هما اللات والعزى بالنسبة له ، ترك الصلاة - نذرا - حتى ينتهى من حفظ أشعارهما : باختصار شاعرا الحداثة صارا نمطا ، وتوقف ما بشرا به من تمرد . ولهذا لم يكن صدفة الموازنة بين شاعرين أو تركيز الهجوم أو الدفاع حول شاعر معين : نمط . والنمط هكذا مركز تدور حوله مجموعة من الرؤى الجزئية التى لا يتجاوز موضوعها المدروس البيت أو البيتين حول أى فكرة أو رأى أو ضبط سرقة أو عنصر بلاغى أو نحوى أو معجمى .

إن هناك نمطا كبيراً هو تقاليد القصيدة ، والتنوع داخل هذا النمط

من المهلهل إلى أحمد شوقى . والتنوع يقوم على محاكاة شعر الفحول السابقين، ولهذا كانت المعارضات والسرقات بل والنقائض . ستظهر محاولات التمرد لكنها دائمًا لا تخرج عن النمط إلا وتعود إليه . إن أكبر تمرد حدث كان اختراع الموشحات التى انتهت إلى شكل القصيدة ولغتها، وكأن هذا الشكل قوة جاذبة مسيطرة . فشكل القصيدة الموروث مركز يتجمع حوله الشعراء محاكين مطيعين .

وكان الزجل تمردا على الموشحات، فانتهى إلى أن صار - عند الششترى مثلا - موشحات أو قصائد، ولم يبق للزجل من تميز سوى استخدام العامية فى ميل عنها مستمر نحو الفصحى . وتم تنصيب ابن قزمان إماما يحمل هذا اللقب الدينى، دلالة على تحوله إلى نمط له قداسة تتشابه مع عصمة الأئمة، أو قل مركزاً يتجمع حوله الزجالون فى نسخ للمركز ومحاكاة له .

نحن لدينا نمط القصيدة بتفصيلات داخل ذلك النمط حوّلته لإناء يعطى سائله لونه مثل الزجاج الملون . أكبر درجة للتناص النمطى، إذا صح التعبير .

سؤال آخر : لماذا كان قدر الشعراء أن يمدحوا؟ إن شاعراً مثل المتنبى لم يفتح فمه قط إلا لمدح أو هجاء يقلب فيه المدح على وجهه الآخر . ويدخل فى الوجه الأول للمدح الرثاء والفخر بل والوصف والغزل، ولهذا أتعب النقاد والباحثون أنفسهم بدراسة ما أسموه اختلاط لغة الغزل بلغة المدح . إن المدح صار وظيفة نمطية للشاعر، واسم من

أسماء الشعراء الشعبين : المداح ، وفى مصر - ولا أدرى عما يحدث فى بلاد عربية أخرى - يطلق على القصاص الشعبى الذى يقص السيرة الشعبية النثرية اسم : الشاعر . لماذا؟ لأنه يمدح أبطال السيرة ويهجو أعداءهم ، فكأن مفهوما ما للشعر هو بالضبط «المدح» . وعندما سأل الخليفة عمر بن أبى ربيعة : لم لا يمدحه؟ أجاب بأنه رجل لا يجيد إلا مدح النساء . وهكذا فهم العرب الشعر فى ترجمتهم لكتاب الشعر لأرسطو .

نحن إذا لدينا نمط لوظيفة الشعر هو المدح ، والمدح داخله تنويعات من هجاء وفخر ورثاء وغزل ووصف للأشياء أو للرجال .

وقد تعودنا أن نعطى إمارة الشعر لعدد محدود من الشعراء اعتبارا من امرئ القيس وانتهاء بصلاح عبد الصبور . إن لفظة فحول الشعراء جعلت فى تاريخنا نموذجًا أعلى للشاعر ألبسناه لعدد من شعرائنا على مر العصور ، لخلق الشاعر النمط الذى يحتذيه الشعراء الشبان اللاحقون . والمدح له وظيفه تحتاجها الجماعة : إنه تقوية للبطريرك المركز الذى حوله تلتئم الجماعة وليحقق الأمن .

لدينا أيضًا شاعر «نمط» داخله تنوع اسمه الفرزدق أو أحمد شوقى أو صلاح عبدالصبور أو غيره . لم يتشكل فى تاريخنا مدارس أو اتجاهات شعرية يثور بعضها على بعض ويغاير ، انتماء لمذهب فلسفى أو فنى ، ومصطلح المدارس اخترعه أصحاب مدرسة الديوان ، وأصدروا «مانيفستو» ، وهناك الرابطة القلمية والرابطة الأندلسية فى

الأمريكتين، ثم أخيرا مدرسة «أبولو». فهل أتيح لنا أن نخرج من إسار الشاعر «النمط»، وهل هذه المدارس مدارس حقيقية؟ هذا هو السؤال! لقد تساقط أفراد كل مدرسة ولم يبق منها إلا المركز النمط، فمدرسة الديوان بقى منها العقاد، ومدارس المهجر جبران ومدرسة أبولو قادها زكى كمال أبو شادى فى مركزية حالت دون التطور.

وفى عالم النثر: أين أدبنا القصصى؟ لماذا أهمل ولم يقم حوله نقد؟ ولماذا ظل شفويا ما عدا أخبار كتب التاريخ والسيرة والمقامات وكليلة ودمنة؟ وفى العصر الحديث عند ظهور الرواية والمسرح والقصة القصيرة ظهرت ثلاثة مراكز أنماط: نجيب محفوظ، وتوفيق الحكيم، ويوسف إدريس.

لماذا كان العداء ضد الجديد؟ لقد صمت الجميع عن الحديث عن الموشحات والزجل حوالى ثلاثة قرون من الزمان، وكاد يضيع هذا التراث، ألف ليلة وليلة نفسها كادت تضيع. هل هو الصراع بين المستويين اللغويين؛ وهو صراع غير عادل، فالفصحى تسندها السلطة بمفهومها الواسع، والعامية تعانى ما يعانيه عامة الناس من قهر المركز للمحيط والأطراف، حفاظا على تراثهم ومصالحهم؟.

إن العداء ضد أدب العامية صار نمطا نقديا أو موقفا نقديا متكررا حتى اليوم فدخل فى طور «النمط» الثابت السلطوى مثل كل الأنماط.

وإذا كنا نتحدث عن موقف نمط، فإن مؤرخى الأدب، يكادون

يصفون الأدباء جميعا بنفس الأوصاف، حتى أننا قد لا نخرج بمعلومة مميزة واحدة لصاحب الترجمة أكثر من تاريخ ميلاده أو وفاته، والخروج على هذا النمط هو خروج داخل نمط آخر وفى تنوع منمط. إنه الحكى الذى يسعى لإطرافنا بنوادر حول الشخصية المترجم لها إن كانت تثير الاهتمام المسلى نوادر حياتها سواء أكانت حقيقية أم مخترعة. عالم من الأنماط.

ما السر وراء ذلك؟ لقد كانت بداية الخيوط عندى هى شفوية البداية (أو البداوة؛ وبين الكلمتين فى العربية اشتراك فى المجال الدلالى والصوتى). إن الكائن الشفوى كائن مرتجل لإبداعه بالضرورة. والارتجال جذرها (ر. ج. ل.) أى رجُل، رجْل - أى إنسان فى حركة على غير هدى سوى حاجته الداخلية للماء والكلأ -، هذا الاحتياج الداخلى يحرك رِجْل الرجُل، بحثا عن تحقيق تلك الحاجة: ارتجال. ومع تطور مفهوم الكلمة، فقد رأيت فيها أسلوب حياة فرضته طبيعة البادية على سكانها كنمط غالب للعيش مضاد لنمط قرى «الواحات» الخاضعة دائمًا لسيف البدوى حاميًا أو معاديا. ومع الاحتياجات المتبادلة بقيت القرى تحت سيف المرتجلين أو البدو. الارتجال يرادف البداوة وهو النمط السائد ثقافيا وعسكريا فى الصحراء. إنه النمط الأم الذى خرجت منه كل أنماط الحياة بما فيها أنماط الأدب. إننى أكاد أرى «الرجُل = الإنسان» قد اختصرت فى «الرِجْل = الحركة».

لقد وجدتنى عند الإمساك بأول هذا الخيط، قد أعلنت تلمذتى لابن خلدون. وهى تلمذة تتمنى أن تمتد بالأدوات المنهجية النابعة من الواقع التاريخى المنصرم إلى الواقع التاريخى المعاصر امتداد التطور والإبداع فهل دراسة هذا النمط الأم يفتح بابا لفهم مسيرة تاريخ الأدب ويقدم حلا لمشكلتى المنهجية التى أظنها مشكلة تتجاوز الباحث إلى غيره من الباحثين؟ لابد من المغامرة والمضى قدما خطوة فخطوة. وأول خطوة قد تجر لمزيد من التقدم فى الطريق.

والتنميط اتجاه عقلى، يكاد يتحول إلى فسيولوجيا (وظيفية) للمخ عند الإنسان القديم الذى لا زال الإنسان العربى ينتمى إليه. وهذا يعنى أنه أشبه بالإدمان، إننى أضرب مثلا واحدا - ولدينا مئات الأمثال - فى حياتنا المعاصرة. فى «يوما ما» أقام أحد الأثرياء حفل زفاف فى أحد الفنادق. فتبنى كل المدعوين نفس الأسلوب فى إقامه حفلات زفاف ذويهم، والمدعوون لكل حفل زفاف من حفلات هؤلاء يفعلون نفس الشىء حتى تحول الزفاف إلى نمط يملأ فنادقنا ونوادينا بضجة قبيحة. واختفى النمط الشعبى. إن التكاليف الباهظة لهذا الزفاف لا توقف سلطوية النمط المستجد رغم الأزمة الاقتصادية الخانقة. إننا نحول الأنماط إلى حبال نلفها حول رقبتنا فتظهر على وجوهنا أعراض الاختناق المقززة والمخيفة.

نفس الشىء يحدث فى مجالات علم الأدب على مستوى الإبداع والنقد، نتبنى أنماطا سائدة سلطوية تتسع دائرتها والكل يدخل فيها

دون فهم أو مناقشة . إن من يراجع رسائل الماجستير والدكتوراه - مثلا - فى أقسام اللغة العربية - يجد أحد العناوين يظهر فجأة ثم يتكرر دون رحمة أو هوادة ردحا من الزمان فى كل مكان . ويستطيع القارئ أن يجرد كل رسالة من بعض أسماء الشخوص والأماكن فتصير الرسائل جميعا رسالة واحدة . إن شاعراً يبدأ قصيدته بلفظة «عيناك . . » فتبدأ آلاف القصائد بنفس اللفظة . إن نمط الارتجال يسيطر على الجهاز العصبى ووظائف المخ بشكل يجعل الإفلات من رؤيته التنميطية التابعة أمرا بالغ الصعوبة يحتاج إلى مجهود ضخم من علماء علم «النفس الاجتماعى» . وغيرهم من المصلحين والمفكرين . والمشكلة التى تواجه المفكر العربى منذ أول القرن العشرين أنه واقع تحت سطوة نمط الارتجال دون وعى بذلك . إن مجرد إثارة هذه القضية يفتح أمامنا مجالا واسعا للوعى بقضايا أدبنا العربى فقضيتا الانتحال والسرقات ما كانتا إلا نمطا يتردد دون وعى به فحوكم بنمط أخلاقى آخر يقوم على سرعة إصدار الأحكام التى تتحول إلى نمط نقدى .

وكان هذا البحث محاولة جادة لفهم ذلك النمط الحضارى العربى : «نمط الارتجال» وهذا النمط فى فلكه الكونى : «وقائع التاريخ العام» هو تكبير لوجوده فى فلكه الذى هو بؤرة الفلك الكونى «وقائع تاريخ الأدب» . والوجودان المكبر والمصغر إنتاج «لعقل عربى» تشكل بهما وشكلهما فى آن .

إننى أقدم «نمط الارتجال» استقراء للتاريخ العام والواقع معا ،

واقترح أن يكون هذا مقدمة منهجية لدراسة تاريخ الأدب العربى، وإقامة جدل مستمر بين هذا التاريخ وبين النمط، لكى ينكشف النمط والتاريخ معا فيفتحان الباب نحو فهم حاضرنا وهدم ما به من أسرار نحو مستقبل نبنيه، وسد كثير من المسالك الضارة نحو الماضى تنتشر فى هذا الحاضر، ثم فتح مسالك أخرى نحو الماضى، لكنها المسالك المنشطة التى تحفز لتخطى عقبات الطريق القادم.

إن الماضى عزيز إذا كان مادة خاما نضيف إليها من أنفسنا ومن إبداعنا موادا جديدة لصنع المستقبل، لكنه عبء ثقيل إذا فرض صورة للمستقبل محاكية لصورته ونابعة منها.

وهذه المحاولة المنهجية نحو تاريخ لأدبنا العربى - لا يقوم على صيغ جاهزة - لا تقدم صيغة جاهزة أخرى جديدة، وإنما فقط تقترح عنصرا مبدئيًا قابلاً للاتساع باتساع العقل العربى وتاريخ هذا العقل، ففى النهاية «نمط» الارتجال نمط عقلى ينبغى أن نمتلكه بالوعى به، لكى نمتلك تاريخنا ولاسيما الأدبى. وامتلاك التاريخ فى امتداده المطل دوما على المستقبل( من منبع لا ينضب هو الماضى الذى يمر عبر لحظة الحاضر) هو أعلى ما تسعى إليه الشعوب.

إن هذه المحاولة بداية لعمل أعد له منذ سنين، وهو التأريخ للأدب العربى.

أرجو من الله سبحانه وتعالى أجر المجتهد إن أخطأت أو أصبت، ففى الحالتين أكون قد شكرت نعمته على بأن حبانى «عقلا».

(١)

# تأمـلات نظـرية

## (فى الحضارة والنمط)

نشاط الإنسان جيلا بعد جيل وابتداء من غرفة نومه وانتهاء بحقل عمله مرورا بكل ممارساته المادية وما وراء المادية يمكن أن نطلق عليه لفظ حضارة. ويقصد بالإنسان هنا «الجماعة الإنسانية داخل مؤسسة الدولة سواء كانت الدولة إطارا قبليا أو عرقيا أو دينيا أو قوميا وسواء ارتبط هذا الاطار بأرض ذات حدود ثابتة أو بأراض تكون حقلا للتنقلات أو الانتشار [٣].

ومع ذلك فيمكن أن يتسع مفهوم الإنسان السابق ليشمل جماعات إنسانية متعددة داخل إطار عدد من الدول القومية التى يجمعها تاريخيا مؤسسة واحدة متسعة مثل اللغة الأم المولدة للغات «بنين» إذا كانت اللغة الأم حاملة الثقافة ذات جذر واحد تحمل ظل دولة فانية، أو التى يجمعها بعد ذلك تجمع تاريخى أكبر تحت إطار فلسفى واحد، ومثال مؤسسة اللغة ما نطلق عليه الحضارة اللاتينية أو جارتها الحضارة الجرمانية. أما التجمع التاريخى الأكبر الذى ينظم تحت إطار فلسفى واحد فمثاله ما نطلق عليه الآن حضارة غربية. ولا شك أن هذا التجمع التاريخى يتحدد بمجموعة من التحالفات تبدأ مثلا بالتحالفات الملكية فى أوربا التى شنت الحروب الصليبية من بعد وانتهت اليوم

بحلف الأطلنطى وجيوبه ، أو الاتحاد الأوربى ومؤسساته، وهى تحالفات أو اتحادات تحل تدريجيًا محل مؤسسة الدولة بمفهومها المشار إليه منذ قليل، ولا سيما أخيرا فى ظل العولمة(٤) .

وتقاس الحضارة - فى رأينا - باستمراريتها فى الإبداع المادى وما وراء المادى والإبداع المادى هو المنجزات التكنولوجية القادرة على الإنتاج الدائم التحسن وتوليد نماذج تكنولوجية جديدة أكثر تقدما وأكثر قابلية للتطور فى حركة دائبة و متراكمة التقدم تراكما كميًا فكيفيا فكميا فكيفيا فى عملية تكاثرية متطورة.

أما الإبداع ما وراء المادى فهو تلك الأنظمة المتعالقة فى إدارة العملية التكاثرية وصيانة كل الأجهزة العملية ولا سيما الإنسان الذى يحتاج إلى إدارة وصيانة مستمرة تقف وراءها كل العلوم والفنون والأديان والفلسفات والآداب وتخطيط السلوك والعادات والعقائد والشعائر.

واستمرارية الحضارة فى الإبداع يشبه تدفق التيار الكهربائى لابد أن تعترضه مقاومة تتزايد فى تراكب يهدد التيار بالتوقف أو السريان الضعيف العديم الجدوى.

وحركة تزايد المقاومة تسير فى اتجاه سريع التصاعد باطراد الجهل بها ولكن الوعى بها يشبه التفاعل الكيماوى العكسى أى يؤدى إلى انحلالها كلما تزايدات وتراكبت فيقل خطرها وقد ينعدم، وكل جهل

يمكن أن نطلق عليه سلوكا محافظا وكل وعى يمكن أن نطلق عليه سلوكا ثوريا . واستخدام لفظ محافظ أو ثورى هنا لا نقصد به ما تعارف الناس عليه فى استعمال اصطلاحى لهاتين الكلمتين . وإنما المحافظة هى باختصار عرقلة الإبداع والتوقف عند الإبداع الكائن باعتباره خير ما يكون وما سيكون أى تمجيد الكائن ورفض أية مخالفة له . والمثل الصارخ على ذلك العبادات والأديان التى تقوم على عبادة السلف والأجداد أو تلك الأفكار التى ترى أن القدماء لهم فضل التقدم وأنهم لم يتركوا مجالا لفضل لغيرهم من حاضر الأجيال ولا جديد تحت الشمس . لقد ولد ذلك التبرك بالقبور والاستعانة بالأولياء والقديسين وخلق فى الخيال الشعبى آلافا من الأشباح والمخاوف من ذلك الثقب فى الحاضر الذى يفجر فى حياتنا بين الحين والحين بركان الماضى يجثم على صدورنا ويقيد أيدينا ويوقف عقولنا عن التفكير فى شلل يقتل الإبداع .

أما الثورية فهى إطلاق طاقات الإبداع بتطهير مسار الحضارة بشكل مستمر من المحافظة بفضل الوعى بها وبتكلساتها بل وبضرورة وجودها باعتبارها «إفرازا هامشيًا وحتميًا بصاحب الإبداع» . وهو إفراز غير منظور تكتيكيا ومنظور استراتيجيا . بمعنى أن المحافظة عبارة عن تفاعل يشبه تفاعل العامل المساعد فى الكيمياء يتم لإكمال الإبداع وإنجازه ويمر دون أن نحس به ، لأنه ذو وظيفة ضرورية لإنجاز الإبداع

ثم بعد فترة من الزمان تنعكس وظيفته، فيصير منظورا مألوفا تكتيكيا وغير منظور استراتيجيا.

وحتى يكون ذلك واضحا نقوم بإيضاح ذلك.

قد يؤدى الإبداع إلى اختراع جديد أو فن جديد أو فكر جديد، وكل جديد فى حالة مسير الحضارة وتدفقها يجد من يعجب به، والإعجاب بالجديد خطوة أساسية نحو تبنيه، والتبنى ينتهى بالتعميم، والتعميم مصحوب بالتحمس. وتبدأ المحافظة باستمرار التحمس الذى يجعل من عملية التعميم عملية تجميد واحتكار يقفل الباب أمام كل اختراع جديد أو فن جديد أو فكر جديد. ويتم ذلك بسبب تحول الجديد إلى محور أساسى يمثل مصالح إحدى القوى الاجتماعية داخل الدولة بمفهومها المتسع الذى سيكون المفهوم الوحيد لنا داخل هذا الكتاب وذلك حسبما أوضحناه فى الصفحات السابقة. ويحدث ذلك لأن كل جديد مبدع لابد بالضرورة أن يصير مصدرا لسلطة واحدة أو أكثر من قوى المجتمع الإنسانى. وقوى المجتمع الإنسانى تتلاقى مصالحها وتتناقض حسب نزوعها إلى المحافظة على مكاسبها فى ظل العمل الدائم على الحصول على مزيد من المكاسب. وهذا ما يمكن أن نطلق عليه ممارسة السلطة. وهذه الممارسة تؤدى إلى عملية مستمرة من بناء التحالفات وهدمها.

وسبيل المحافظة على المكاسب بزيادتها فى ممارسة للسلطة هى عملية تجميد الجديد واحتكاره بعد الإعجاب به وتبنيه وتعميمه(٥).

وتتم عملية التجميد والاحتكار بعملية القولبة لكل شيء مادى وما وراء مادى بالتنميط داخل إطار الجديد المجمد والمحتكر. وبالتالى يتحول الوعى الحر إلى وعى بأنماط يبدو أنها ضرورية وبدونها يسقط العالم، وهذا الوعى هو عين الجهل الذى أطلقنا عليه السلوك المحافظ. وهذا الجهل هو وعى مقيد بالأنماط. ووظيفة هذا الوعى تفقد الإنسان الاستراتيجية وتجعله يدور فى فلك مصالحه أو مصالح غيره العاجلة.

وفى ظل هذا الجهل أو الوعى المقيد بالأنماط (السلوك المحافظ) تتهاوى الحضارة وتضعف الدول وتتوقف الحركة داخل الجماعة الإنسانية سوى صراع محموم على ممارسة القوة فتلعب قوى المجتمع لعبة الكراسى الموسيقية فيما بينها، يقوم تحالف ويتهدم آخر وتتغير أسماء وشعارات لكى تدور الجماعة داخل الأنماط المتكررة الموئسة ويتوقف الإبداع ويتحرك الزمان فى حلقة مفرغة وتعمل فقط عوامل الطبيعة تعينها يد الإنسان.

والمثال على لعبة الكراسى الموسيقية ما يحدث فى العالم النامى فى التجمد من انقلابات عسكرية وتغير فى الحكومات فى توال قياسى (مثل صارخ لذلك: بوليفيا) دون أى هدف واضح وراء ما يحدث سوئ سيطرة النمط على كل مظاهر الحياة بما فيها السياسة(٦).

وعملية القولبة داخل أنماط تؤدى إلى المطلق فى كل شيء ولا سيما فى القيم والمفاهيم مما ينتهى إلى تصنيف البشر إلى أنماط فى كثير من الأحيان تتحول إلى لعنة يورثها الآباء حتى أحفاد الأحفاد.

والأنماط مجموعة من المطلقات تنسلخ على كل مفردات النوع ولها ثبات أسطورى يضم تلك المفردات ويلغى بقدر الإمكان شخصيتها وتميزها ولا يخضعها إلا للتغيرات الطبيعية من تعرية وترسيب وميلاد وموت ونضرة وتحلل أو تغير فى مكان الوجود أو زمانه أو فيهما مع ثبات خصائص ذلك الوجود.

وخطورة النمط أنه ظل للجديد بعد الإعجاب به وتبنيه وتعميمه ومعنى الظل أنه أمثال مجمدة ومحتكرة للأصل الذى يتلاشى بعد اختراعه. أى أن الجديد يفرز أفرادا مثيلة له لا حصر لها. هذه الأفراد نسخ من الجديد الذى يفقد جدته ويصير نمطا مطلقا ساريا فى كل النسخ فالنسخة إذن ظل أو خيال ترتسم عليه ملامح النمط[٦] . وهذا الظل قد يؤدى وظيفة «الأصل الجديد» الذى فقد جدته وصار نمطا فى الظل أو النسخة. وأداؤه للوظيفة يقلل كفاءته مع مضى الزمان ما لم تدركه الثورية. سأضرب عددا من الأمثلة: اختراع المحراث اليدوى كان جديداً حمل مخترعه ولعله أوزوريس إلى مصاف الألوهية. كثرت نسخه وأفراده وأدى وظيفته بكفاءة رائعة فى أوائل عصر الزراعة عندما اكتشف الإنسان الزراعة. ولكن بتعميمه وتعميم المجتمع الزراعى لم يفكر الإنسان فى أسلوب آخر لآلاف السنين حتى تم اختراع محراث ميكانيكى. ولا شك أن المحراث اليدوى القديم والذى لازال موجودا فى مساحات شاسعة من العالم قد قلت كفاءة أدائه لوظيفته مع اتساع المساحات وصارت العملية الزراعية بطيئة

للغاية وتحتاج لكثافة من الأيدى العاملة الزراعية تزيد من تكاليف الإنتاج. إن هذا النمط الساحق السيطرة أصبح مضحكا الآن فى نظر الفلاح الغربى ولكنه عاش آلاف السنين يصرف الناس عن التفكير فى تطويره أو استبداله بسبب تجمده. ومثله كل أدوات وأساليب الزراعة القديمة. إن طريقة الرى المستديم وما تبعه من دورات زراعية لازالت منذ آلاف السنين تحكم المصير المصرى مثل القدر أو أشد سطوة. لقد التصق المصريون بالنيل وتركوا وراءهم ٩٧٪ من مساحة الوطن دون حياة أو عمران. وهكذا يهدرون ماء النيل وتفسد الأرض بعلو مستوى الماء الجوفى بها وبتكرار زراعة نفس المساحة بنفس المحصول وترتب على ذلك تكاليف صرف عالية رفعت من تكاليف الإنتاج ضعف المعدل.

إن تحديث الزراعة فى مصر بتحديث الرى يقلل جدا من تكاليف الإنتاج ويزيد من المساحة المزروعة زيادة أسطورية بمعنى أن الماء الذى يروى فدانا بأسلوب «النمط» فى الرى سيكفى من ٥ - ١٠ فدادين، وبإلغاء نمط «الدورة الزراعية» وزراعة الأرض مرة أو مرتين فحسب فى العام سينشر ما نزرعه فى فدان إلى ثلاثة فدادين فلو ضربنا المساحة الحالية × (٥×٣) أو ضربناها × (١٠×٣) لعرفنا إن بإمكاننا زيادة الرقعة الزراعية من ١٥-٣٠ مرة. وهذه أرقام خيالية ستجعلنا ننتشر بعرض وطول مساحة الوطن(٧).

أى أن الثورية فى مواجهة النمط يمكن أن تؤدى إلى تغيير بالغ

الخطورة وبعيد المدى فى حياة إطار دولة مصر التى تتطلع دائمًا إلى الصحراء فى ظل مخالف للنمط دون أن تتطلع إلى تغيير النمط الذى يسيطر على الوادى القديم .

إن كلمة صعيدى أو فلاح وصمت ملايين البشر بخصائص تجاهلت تميز الأفراد وعاملت الجميع على أنهم شخص واحد عبر أجيال لا تعد ولا تحصى ولهذا نظيره تقريبا بين كل الجماعات الإنسانية . إن تنميط بعض البشر تحت نمط واحد يقدم زنزانة تستقبل المولود وتحدد مصيره حتى مماته[٨] .

كذلك تنميط القيم مثل الفضيلة والرذيلة والكرم والبخل والمروءة والدناءة وحتى الوطنية يفرض على البشر الدخول فى أنماط ثابتة لا أمل لهم للفكاك منها إلا للدخول فى نمط آخر ولابد أن يكون على يد نمط كأن يذهب الإنسان للاعتراف فى الكنيسة أو يمارس التوبة بين يدى فقيه[٩] .

إن كلمة حاكم تتحول إلى نمط يُفرضُ على الجماعة وعلى الحاكم معا وبنفس الطريقة يتحدد نمط الحكومة والسلطة [١٠] .

إن بعض البلاد لا تتخلص من الحاكم إلا بموته أو عزله ليحل محله توأم له في كل شيء دون أن يتغير إلا الاسم وحتى ذلك الاسم الجديد سيتلاشى داخل فيض من الألقاب والكنى والصفات التى يتميز بها نمط الحاكم [١١] .

ندرك من كل ذلك أن الإبداع يقدم جديداً والجديد يتحول إلى نمط يؤدى وظيفة تحتاجها الجماعة بعد تبنى النمط وهذه الوظيفة وظيفة ثورية طالما يتم أداؤها بكفاءة كبيرة وحتى يتم ذلك لابد من طواعية النمط للعلمية الإبداعية المستمرة . وحين يتجمد ويسد باب الإبداع تقل الكفاءة بل وتنعدم الوظيفية ويصبح النمط أسلوبا لحماية بعض الأوضاع الاجتماعية والسياسية وأداة لخدمة بعض القوى دون الأغلبية ومن ثم لا سبيل أمام المتأمل إلا اعتبار هذا النمط وأمثاله كعلامات للتأخر والانهيار الحضارى، وغياب السلوك الثورى وسيطرة السلوك المحافظ(١٢) .

إن تاريخ الدول هو صراع مستمر بين الثورية والمحافظة على جميع المستويات المادية والماوراء مادية وبقدر ما تفرز الدول من أنماط متطورة أو متجمدة تنشأ الحضارات وتموت وتزدهر وتنهار والمحور الأساسى لهذه العملية هو الإنسان.

إن رؤية الإنسان للعالم من حوله هى التى تحدد سلوكه بين الثورية والمحافظة فكلما كانت رؤيته متحررة من سيطرة النمط برز طموحه لتطويره أو تغييره وكانت أفكاره دائمة الولوج فى المستقبل، فيتفتح أمامها باب الإبداع الخالق للحضارة، وكلما كانت رؤيته محكومة بالأنماط الدائمة الولوج فى الماضى الزائفة الطموح - بمعنى أن طموحها دائما هو الدخول فى أنماط سلفية ذات بريق سحرى، انغلق أمامها باب الإبداع ودخلت فى حلقة مفرغة من الدوران حول نفسها

بينما يتحرك حولها المبدعون وهى فى حالة من الثبات والتجمد مما يفرض عليها الانهيار الحضارى وما يطلق عليه التخلف .

إن مجموعة كبيرة من دول العالم قد أدخلتها الحضارة الغربية نمط أطلق عليه «العالم الثالث» . وبسبب الرؤية المحافظة لهذه الدول قبلت النمط سريعا ووقعت فى فخ ترديده وقبول معطياته(١٣) .

إن هذه الدول تدور الحياة فيها تحت رؤية محكومة تماما بالأنماط وقد ثبت أن إمكانية خروجها من التخلف باتت ضئيلة ما عدا بعض دول الشرق الأقصى مثل تايوان وكوريا الجنوبية فقد جابهت تحديات فرضت عليها الخروج من الأنماط والاندفاع فى الإبداع . ولعل نجاحها يرجع لطبيعة تراثها الذى يتميز بتنمية خصائص الفرد ومواهبه ، بعكس باقى الدول التى يفرض عليها تراثها الدخول فى أنماط تبدو وكأنها مقدسة وأبدية .

كل ما سبق يطرح أسئلة هامة ويفرض أسلوبا غير نمطى فى طرحها . وهذا الأسلوب كما نراه يجعل من طرح السؤال طريقا لاستثارة التفكير واستنفار الإبداع وليس لمجرد البحث عن إجابة قد تكون نمطية .

إن حضارة الإنسان مرت بدورات ، هيأت كل دورة السبيل لنشوء الدورة الأخرى فالحضارات الشرقية وعلى رأسها دون جدال الحضارة المصرية القديمة قد افتتحت التاريخ وقدمت أول دورة ثم تليها الحضارة الإغريقية . وهذه هيأت السبيل لدورة الحضارة الرومانية والفارسية .

وهاتان أديا إلى الدورة العربية التى سلمت الراية للحضارة الغربية فى دورة لازالت تسيطر على مقدرات العالم وتحتكر الإبداع وتوزعه كما تفرض الجمود ودنيا الأنماط على بقية العالم .

والسؤال : كيف قامت هذه الدورات ولماذا أخذت هذا الترتيب؟

إن كل دورة تسلم منجزاتها إلى الحضارة التالية . والسؤال : لماذا تضطر إحدى الدورات إلى إغلاق بابها وتسليم أسرارها إلى غيرها؟ كذلك فى داخل كل دورة تسهم جماعات بشرية كثيرة فى تحريك الدورة. والسؤال : ما فرصة الجماعة الإنسانية داخل كل دورة فى الإسهام؟ وأخيرا شهدت هذه الدورات موجات استعمارية مفزعة . والسؤال : ما علاقة الاستعمار بالحضارة؟ إن تأمل كل هذه الأسئلة داخل نظرية قيام الحضارة وانهيارها بين الثورية والمحافظة وبين طواعية الأنماط وجمودها قد يفتح نافذة جديدة لفهم تاريخ العالم .

فى ظل هذه النظرية وما تطرحه من أسئلة ينبغى البدء فى دراسة تاريخ الأدب العربى لكشف الإجابة عن أسئلة كثيرة فيما يتعلق بتاريخ هذه الأمة العربية . فالأدب هو بؤرة الحضارة، ومحل الكشف عن مسارها ونبضها(١٤) .

## (٢)

## دراسة الأدب واللغة عند العرب

إن تأمل كل الدراسات التى طرحت حول الأدب العربى منذ رفاعة الطهطاوى حتى شوقى ضيف وما تلاه من جيل معاصر سيشعر أن عصرنا الحديث لا يحمل من الحداثة إلا الوجود فى فلك عصر عالمى حديث. أى أن الحداثة فى دراسات الأدب العربى لا تحمل إلا مفهوما زمنيا فيزيقيا فحسب، ويمكن تطبيق نفس الأمر على الدراسات اللغوية أو غيرها من الدراسات الخادمة لدراسة الأدب.

والسبب فى ذلك هو رؤية الدارسين المقيدة بالأنماط والغارقة فى المحافظة والبعيدة عن الإبداع والمنهج الثورى فى الدراسة طبقا لما أسلفناه من مفاهيم[١٥].

سأترك الأدب قليلا لأخوض فى أمر النحو العربى. لقد ألفت مئات الكتب والرسائل الجامعية فى النحو، وكانت جميعها تحقق كتابا قديما أو تجمع من تلك الكتب القديمة ما قيل حول باب من أبواب النحو أو تقوم بدراسة أحد هذه الأبواب فى القرآن الكريم أو... أو... إلخ دون أن تضيف شيئًا. وهكذا ابتدع الخليل وتلميذه سيبويه النحو وبعدهما وحتى اليوم لا يرى الناس إلا أن علم النحو قد نضج واحترق على يد الرجلين ولا جديد تحت الشمس، وهكذا صار النحو

علما ثابتا يفترض الثبات فى اللغة بل وفى كل مظاهر الحياة والوجود باعتبار أن اللغة تستوعب تلك المظاهر جميعًا، وبالتالى صار المنهج الذى اختطه الرجال الأول المبدعون نمطا مقدسا يفرض مثالا على واقع لغوى يرفضه جملة وتفصيلا وأصبح النحو غصة فى حنجرة كل طلاب مدارسنا بل وفى حنجرة كل مدرسيه الذين هم ببغاوات غير مقنعة لمتكلم اللغة الحديث(١٦) .

وإذا تركنا النحو إلى بيت القصيد وهو الأدب فقد حظى الأدب المسكين بمجموعة من الأدراج والأرفف عليه أن يأخذ طابعها .

فقد ظهرت العصور كنمط للتأريخ ليس لنا منه أى فكاك . فذلك عصر جاهلى وذاك أموى وثالث يتلوهما عباسى، وبعدهما عصر الدويلات ثم العصر العثمانى فالعصر الحديث، وكل عصر له خصائصه التى تضم اليمنى مع الشامى فى سلة واحدة مع قليل من بهارات تحمل اسم التطور والتجديد فى هذا العصر أو ذاك .

وبجانب هذا النمط فقد ظهرت سلتان أخريان تمثلان نمطا آخر يفرض على هذا الأدب هو لعبة المدارس : مدرسة الطبع ومدرسة الصنع . وبجانب ذلك يتم كثير من الدراسات التى لا تخرج عن سابقتها وإنما هى فى داخل إطار مثيل كالحديث عن مدرسة البصرة ومدرسة الكوفة أو الشاعر فلان حياته وشعره أو حياته من شعره ودائما داخل إطار العصر أو الانتماء إلى طبع أو صنع . لاشك أنه يمكن استثناء بعض الدراسات التى قررت تنميطا آخر على ضوء

مناهج غريبة تأخذ شكل الموضة وآخرها البنيوية التى سحر بخورها الغامض بعض الناس وفرضت نمطا آخر للدراسة لكنه دائمًا داخل العصور. وفى ظل رؤية علوية لا تنطلق من أرض الواقع فى محاولة لفهمه ولكنها تفرض رؤية غريبة وفلسفات نشأت فى ظروف مخالفة لظروفنا.

أما إذ عدنا للدراسات القديمة فإنها استهلكت طاقتها فى موازنات وسرقات ودفاع عن شاعر أو هجوم عليه أو ربما داخل أنماط قيمية تقسم الشعراء إلى طبقات. ومن ناحية أخرى آلاف الصفحات فى شروح أو تأريخ عقيم وترجمات كادت تمثل مقبرة ضخمة غطى فيها الغث كل ثمين.

إن دارس الأدب العربى سيجد أمامه كمًا هائلا من المادة دون كيف وسيجابه بمجموعة من المعطيات المطلقة الخاضعة لأنماط تقيد رؤى الباحثين والدارسين وعبر هذه الدراسات ندرك مدى ما نحن فيه من تخلف عام انسلخ على دراسة الأدب. ولنا أن نتصور كل الدراسات الإنسانية دائرة فى فلك أنماط شبيهة (١٦).

ولكن من العدل أن نذكر أن النمطية شىء له قدر من المنطقية فى العصور القديمة وفى كل ما له علاقة بالفترة الكلاسيكية من حياة أمة لأن من طبيعة الحضارة الإنسانية أن حركتها كانت بالغة البطء. وهى حركة سيطر عليها فى أولها الكم ولكن الكيف بدأ فى الانبثاق عن الكم ليولد كما جديدًا أقل من الكم الأول، وهذا بدوره أفرز كيفا

أكثر فى السيطرة على الكم من الكيف الأول . وهكذا دوما أى أن الكيف بدأ من الصفر وأخذ دوره فى الاتساع البطىء منحيا دور الكم . وكلما اتسع دور الكيف تقل مسافة الدورة الحضارية بفرض أن الحضارة تمر بدورات . كانت الدورة الأولى منها تستمر الآلاف من السنين ثم قلت الدورات تدريجيا . وخصيصة تلك الدورات أنها متداخلة ، وقد تسرمد دورة منها داخل أخرى . ويسيطر على كل دورة نظام من الأنماط . وكلما اتسعت المسافة الزمنية وسيطر فيها الكم على الكيف تحجرت الأنماط وطال أمد سيطرتها وتنتمى الحضارة العربية إلى دورة يمكن أن نستعير لها اسم دورة العصور الوسطى ، ولازالت تمتد هذه الدورة إلى اليوم ، وهى دورة تتحجر فيها الأنماط وتحاط بإطار من القداسة وسيطرة مطلقة للمسلمات(١٧) . وعلى ضوء هذا يمكن أن نحاكم كلا من الدراسات القديمة والحديثة على السواء فى أدبنا فى تفهم لسر نمطيتها ، وما خرج على النظام لن تكون إلا أعمال فردية ولن يكون خروجها تاما لأن هذا الخروج يحاول التوفيق والتلفيق و بالتالى الانتماء لنفس القداسة والمسلمات ، وهكذا نفهم خروج ابن خلدون عن النظام ثم خروجه على خروجه فى تأريخه أى عودته للدخول فى النظام ، كذلك الفلاسفة فى توفيقهم أو تلفيقهم بين فلسفة اليونان ودين الإسلام ومثلهم الفرق الكلامية فقد حاولت السيطرة على النقل والنص فسيطرا عليها . وحتى من ينسب إليه التمرد من الشعراء دار تجديده فى

أفق الصورة الجزئية ولم يتجاوزها ، فسقطت ثورة صوره الجزئية فى هوة النظام الحديدى المتحجر(١٨) ، وحتى ما نطلق عليه اليوم الشعر الحـر ، لنا أن نشك كل الشك فى حريته وإن كنا نأمل على يد رواده الفكاك . ومن العجيب أن الرواية والمسرح وهما فنان قد استجدا واستوردا لنضفى عليهما لباس عصرنا الوسيط المعمر العتيد .

إن الخلفية - التى أسموها تقدمية - لخضوعها لتحجر النظام تقوم باستئجاره من الباطن بقداسته وبمسلماته ولكن تحت أسماء جديدة تختفى تحتها النمطية القديمة . ومع ذلك فهناك الاستثناء الفردى ، الذى يواجه بخبث النظام حيث يتم تحويله إلى مصطلحات لخدمة النظام . وأضرب أعمال أدونيس كمثل فقد تحولت كلمتا الثابت والمتحول إلى أدوات لخدمة نمطية النظام حتى تم استهلاك مضمونهما ، وأصبحت كلمة الثابت بمفهوم الجوهر والمتحول بمفهوم العرض . والجوهر مثلا فى نظام العروض العربى هو البحور فى مثاليتها والعرض هو الزحاف والشطر والسطر وتنوع القافية وما إلى ذلك فلا سبيل فى رأيى إلا البدء من جديد فى دراسة دؤوبة تفضح النمط وتعدل من المفاهيم وتطرح المسلمات ، ولا تعرف قداسة غير أن للعقل الحكم والفهم جميعًا(١٩) .

(٣)

## العرب البائدة

## ووشم التاريخ المفقود

يبدأ تاريخ العرب مما يحلو للجميع أن يطلق عليه العصر الجاهلى . وماذا قبل العصر الجاهلى؟ يترك لكل دولة عربية كعمل من أعمال السيادة أن تدرس ما قبل ذلك على أنه تاريخ محلى . وتصبح هذه الأمة العربية القديمة ذات تاريخين وذات انتمائين . وكل شعب يبدو وكأن الأرض ابتلعته فجأة واختفى من الوجود ليبدأ له تاريخ جديد منبت لا أصل له ولا جذر . (إنى أزعم أن ذلك غير صحيح وأن تاريخ المنطقة العربية ممتد امتدادا حقيقًا)(٢٠) .

وهذا سر من أسرار ضعفنا، وعدم استجابتنا سياسيًا لواقعنا كأمة . إن (اليهود) قد تكلفوا لهم تاريخًا ممتدا وفرقوا بين تاريخ الدولة التى أسسوها على أرضنا وبين ما أسموه تاريخ شعب إسرائيل . إنهم أطلقوا على أنفسهم اسم الشعب، وأعطوا هذا الشعب تاريخًا ممتدا وأرضًا موعودة وصارت الدولة هدفًا . وقد تحقق الوعد والهدف وكان أقرب إلى المستحيل تحقيق ذلك، ولكن التاريخ الممتد - وإن بنى على مزيج من الأساطير - نجح فى تحطيم حاجز المستحيل(٢١) .

وأما الشعب العربى الذى كانت له دولة قريبة وعاش نفس الظروف وتعرض لنفس الأحداث وارتبط بنفس المصالح المشتركة فقد

استحال عليه الممكن لأن التاريخ المنقطع قد خلق ازدواجًا للشخصية عند المواطن العربى ونمى بين تجمعاته الإقليمية الأنانية المفرطة، فكل فرح بما لديه، ويخشى أن يقاسمه فيه الآخرون حتى لو كان ما لديه ليس أكثر من حدود تضم ما يدل على ما جعلوه تاريخه القديم المجيد الذى ينتهى بقيام الدولة العربية الواحدة. وأما إذا ما تعرض لخطر مشترك تذكر الجزء الأخير من تاريخه أو ما أطلق عليه التاريخ العربى.

فكل عربى له تاريخ غير عربى وتاريخ آخر عربى، وهو ينتمى إلى سلالة كانت موجودة واختفت ثم انتمى إلى سلالة جديدة مخالفة. وعند المواقف الأنانية تعود السلالة المختفية إلى الظهور بطريقة سحرية فذا فرعونى وذلك آشورى والثالث فينيقى وهلم جرا أو الحبل على الجرار كما يقولون. وفى مواقف أخرى الجميع عربى.

إن التاريخ المنبت لم يمنع قيام دولة حديثة لأمة العرب فحسب بل منع قيام وطنيات متماسكة داخل ما يسمى بالدول العربية فهى دول صناعية ضعيفة تعيش على فوهة بركان وكل مجموعة سكانية[٢٢] توجد بداخلها قنابل زمنية معلن عن أماكنها وليس عن زمن انفجارها. إن التاريخ المنبت يؤدى إلى البحث المستمر عن الانتماءات ويولد الطائفية والعرقية. ويمنع التجانس وقبول التعايش ومع كل يوم جديد يتعمق التفتت ويستحيل دوام الدول فما بالنا بحلم بعيد بدولة واحدة تضم هذا الشتات المهدد بانفجارات متوالية لمئات القنابل الزمنية. والذى تولد فيه كل يوم قنابل جديدة[٢٣].

إن دراسة وتقديم تاريخ هذه الأمة منبتا منقطعا يمثل نمطا عقليا علويا لا أرى على المدى القصير فكاكا من إساره. وأقصد بالنمط العلوى ذلك التحجر المنهجى فى رؤية التاريخ وصياغته وتسامى ذلك فوق أى حقيقة أخرى للواقع المدروس مما يولد مئات من الأنماط المادية والماوراء المادية فى حياة أمتنا العربية. وما ينطبق على التاريخ ينطبق على الأدب(٢٤).

وهذا النمط العلوي يجعل من العرب الموجودين جميعا اليوم عربا بائدة لا وجود لها فكونى عربى وغير عربى فى آن أمر يجعل الوجود مثل التيار الكهربى المتقطع ويجعل الوجود وجودين كل منهما ينفى الآخر فينتفيان معا.

إننا نفسر بهذا تأخر المغرب فى التعرب وكثرة الحروب الأهلية العربية، وبه نفسر قيام الفرق والدويلات واستعصاء كثير من رعايا الدولة العربية على التعريف حتى اليوم، وهو يفسر ضياع الأندلس وفلسطين بل وتلك الدماء التى ضاعت عبثا فى الحروب اللانهائية على امتداد مئات السنين بين ما أطلقوا عليه العرب المضرية والعرب اليمنية. إن تحول العصر الجاهلى إلى نقطة الصفر فى التأريخ لأمة العرب غرّب العرب عن العرب، وحرم طينتهم من الماء الذى يجمع ذراتها فى عجينة واحدة، وفتح أيضًا نقطة الصفر لانهيار دولتهم وجعل من منهج ابن خلدون فى التأريخ الذى يقوم على العصبية منهجا محليا ينطبق فقط على العرب حتى اليوم. إن نمط التاريخ

المنقطع منع استمرار تقدم العرب وجعل النقط المضيئة فى تاريخهم بقعًا لا اتصال بينها فيبدو ابن خلدون كأنه قد ولد من عدم وسقط بعد ميلاده فى بئر سحرى، ومثله يقال على كل مبدعى العرب وعلمائهم وفلاسفتهم ومفكريهم. لقد كانوا مثل المفاجآت التى تتبخر فى الهواء، ولن يكون لهم امتداد إلا فى أوربا التى بدأت تحطم الأنماط، وتبدع أنماطا جديدة ذات مرونة، وبدأ بها الكيف يسيطر على الكم.

إن سقوط تاريخ العرب القديم من حساب التاريخ الجديد أسقط معه منجزات حضارية عظيمة، وجعل من المأمون قزما بصرف أمواله دون حساب فى محاولته اليائسة لهدم الهرم دون بذل أى محاولة فى فهم مغزاه، ولولا لطف الله وتكرم الغرب علينا - حتى ولو سرق ملء متاحفه من آثارنا - ما عرفنا حتى اليوم من تاريخنا القديم ما نعرف! ونحن - مع ذلك- لا نعرف إلا ما أتاح الغرب معرفته ليؤكد رؤيتنا النمطية وانقطاع وجودنا المفاجئ مع ظهورنا المفاجئ(٢٥).

ومما سقط من تاريخنا أدب العرب بغير اللغة العربية، ومعه فنهم وفكرهم وكل شيء. وبدون ذلك المفقود سنعجز عن فهم حاضرنا بل ولغتنا نفسها وأدبها، إن دراسة الأدب الشعبى فى رؤية انثروبولوجية ستكشف عن امتداد القديم، وستقدم لنا معالم شخصيتنا الغائبة بغياب وعينا بها(٢٦).

ومن ثمّ فليس ما يسمى بالعصر الجاهلى هو بداية لتاريخ أدبنا بل وليس بداية لأدبنا المكتوب باللغة العربية. إن لغة ما لا يمكن أن تصل

إلى نضجها وتصير لغة للأدب ولنص جليل مثل القرآن فى مائة وخمسين عاما، وهو كل عمر ذلك العصر الجاهلى. إن هندسة شعر اللغة العربية التى تبدو متقدمة جدا وراسخة بل وعملاقة فى انتظام معبد الكرنك ستحتاج إلى كل مجهودات العرب الحضارية السابقة عبر آلاف السنين لفهم بذرتها. إننى أفترض أن لشعر العربية علاقة بكل أشعار العرب فى لغاتهم التى تحدثوا بها قبل أن تسود اللغة العربية وتسيطر.

علينا إذا أن نعيد النظر فى رؤيتنا لواقعنا التاريخى وأن نقطع انقطاعه ونصل ما هو موصول فيه، وإضافة مساحة جديدة لأدبنا بأن نضم إليه كل آداب لغاتنا البائدة حتى نحييها فى شخصيتنا، وحتى نزيل انفصام الشخصية وازدواجها. إن آداب كل تلك اللغات عربى. فكل ما هو عربى تكوين ثقافى ممتد وليس تكوينا جنسيًا أو سلالة بعد تبخر أسطورة الأجناس والسلالات النقية كأساس لتكوين أمة. إن التكوين الثقافى يشكل ملامح الإنسان حتى الفيزيقى الممتد. وإذا كان هدف دراسة التاريخ هو فهم الحاضر وتفسير صيغ الحياة فيه فإن جزءًا من حاضرنا غائب بغياب جزء من تاريخنا وجزء من أدبنا الشعبى والفردى غائب باعتباره الأدب الذى فقد جذور أجداده. بل يصل الأمر أن أصل كثير من كلمات لغتنا الحاضرة غائب لأنها ذات جذور مشتركة مع آلاف مفردات لغاتنا المختفية التى انفرد بأسرارها الدارسون الغربيون والكثير منهم من أصل يهودى أو ذو فكر عنصرى

أو خادم للاستعمار الرابض لنا والراتع بين الحين والحين نهبًا وسلبًا فى أرضنا(٢٧).

إن سر المأساة أن الوعى بالتاريخ وفلسفاته حديث من إنتاج الحضارة الغربية، ولن يجدى فتيلا خطبنا المعادة عن ابن خلدون، فقد عجز شخصيًا عن تطبيق فلسفته حين أرخ، وقد عجزنا حتى الآن حتى عن تطبيقها، ففهمه لكثير من قضايا الحضارة يتجاوز فهمنا وأطرح مثلا معالجته للعلاقة بين اللهجات، وعدم تفضيله الفصحى على غيرها وإدراكه لمفهوم اللهجة ووظائفها وطرحه مسألة أن عدم وضع نحو للهجات لا يعنى أن ليس لها نحو(٢٨) . وما دام الوعى بالتاريخ حديثًا من إنتاج الحضارة الغربية، فإننا لا زلنا بعيدين عن أعماق هذا الوعى. فقط نحن قادرون على استيراده واستيراد الوعى بالتاريخ لا يخلق وعيا بالتاريخ وإنما يمهد لخلق وعى نظير ومواز يتدفق من قراءة تاريخنا وواقعنا(٢٨) .

والسبب فى وقوفنا عند استيراد الوعى أننا لا زلنا نعيش فى الزمن الغابر وانتماؤنا كامل للعصر الوسيط، فعلاقتنا بالغرب ليست علاقة بين شعوب متعاصرة متكافئة، وإنما هى علاقة من أطرف ما يمكن: إنها علاقات دبلوماسية بين عصرين أحدهما وسيط يستهلك نفسه هو عصرنا وبين عصر حديث ينتج لنا ما نستهلكه كما ينتج الكبار اللعب للأطفال يعجزون عن فهمها فيحطمونها ويعجزون عن إنتاجها فيطلبون مزيدا من اللعب. ولهذا فسفراء العصر الحديث عندنا

لا يمكن إلا أن يكونوا مندوبين سامين، يشعرون بتفوقهم وبانقراضنا فى آن[٢٩] .

ومن ثمّ فقد استوردنا رؤيتنا للتاريخ ومنهجنا كنمط شكل نفسه ضمن بنانا العقلية. ندور فى العصور كما تدور قشة فى دوامة، وفى موازاة تاريخنا العام تم استيراد تاريخنا الأدبى وأصبحت كل اجتهاداتنا أن نملأ خانات فى أدراج فارغة داخل الهيكل المستورد، وكما وصفناه من قبل فهو نمط علوى يولد مئات من الأنماط. لقد ترتب عليه استيراد نظمًا سياسية وإدارية وإجتماعية مليئة بالأدراج وتصبح حصيلة نضالنا ملء درج أو تفريغ درج آخر وإعادة ملئه، وعشنا غرباء عن واقعنا التاريخى وفروعه من واقع سياسى وإدارى واجتماعى. استهلاك محض وانعكس ذلك على استيرادنا للنظم التكنولوجية وتعودنا على الجاهز حتى فى الملابس فقد بدأ عصر الملابس الجاهزة والتى يعدها البشر فى كل مكان على مقاسنا ونحن وحدنا حينما نحاول أن نعد ملابسنا تخرج على غير مقاسنا، وقد خلت من الذوق والهندام.

وترتب على كل ما سبق أن صار التاريخ سلعة. تاريخنا القديم يدرس فى كليات الآثار أى أنه يدخل نطاق المتاحف وعالم السياحة، وبين الحين والآخر نتذكره لتنمية شىء من الإقليمية أو الطائفية أو سحب جواز سفر العروبة من أحد. أما ما تلا ذلك من تاريخ فيبدأ بالعصر الجاهلى كخطبة أساسية فى معظم الأحيان تهجو ما كان فيه من جاهلية ووثنية وقيم لكى تمهد لذكر ما جاء به الإسلام من قيم

مضادة، وتنتهى الخطبة بأن الشر ليس شرا كله فهناك فى هذا العصر بعض المحاسن والمحسنين[٣٠] والشعر ديوان العرب.

وهكذا ينتفى تاريخ العرب كعرب، وإنما هم قوم نشأ بينهم دين عالمى، ونقطة الصفر ظهور ذلك الدين، ويتحرك التاريخ بعد ذلك كتاريخ للدين الإسلامى وليس للعرب، وهكذا يسيطر التأريخ للدين على التاريخ العام. إن التأريخ للدين أمر مشروع ومطلوب، لكن كعنصر من عناصر متعددة للحضارة حتى لو ارتبطت هذه العناصر به، فكل عناصر الحضارة مترابطة ولابد أن يكون فيها العناصر الأهم والأقل أهمية. لابد من دراسة تاريخ العرب الوسيط، وهو ما يتلو تاريخهم القديم على أنه تاريخ للعرب، وإنه تاريخ إنسانى وليس سماويا، مع وضع الدين موضعه من القداسة داخل ما يأمر به الدين نفسه. وفهم دوره فى مكانه من التاريخ، مثلا معاوية صحابى وكاتب وحى، هذا مكان من الدين أما كونه السياسى المؤسس للدولة العربية الثانية ذات السمة الإمبراطورية والعلمانية إلى حد كبير، بعد الدولة العربية الأولى التى أسسها الرسول الكريم وذات الصفة الدينية، فهذا أمر آخر منبت عن صفته الدينية. فلدينا دولتان عربيتان بعد الإسلام الأولى نشأت فى المدينة، والثانية نشأت فى دمشق، ومؤسس الدولة الثانية هو مبتكر علم السياسة فى الإسلام، وبالتالى فلم يفت من عزمه أفضلية «على» الدينية، بل إنه من منظور السياسة فى إطار الحسابات الدقيقة للقوى هى نقطة الضعف الكبرى عند «على» وهكذا

حقق استراتيجية مستعملا كل التكتيكات المتاحة وافقت الدين أو خالفته. فإذا كان معاوية كذلك فلابد أن أنظر إليه من منطلق ما كان لا من منطلق تصور مسبق يضفى عليه أو على خصمه على بن أبى طالب شيئًا من القداسة. فبالفعل الصراع كان بين موقفين وعصرين، ولم يعد من الممكن إدارة إمبراطورية ضخمة بالتواضع أو من تحت شجرة كما كان الأمر فى عصر الراشدين بل وأكثر من ذلك فقد حقق الراشدون نظامًا لا مركزيا يتولى فيه الولاة كل سلطات الخليفة الذى لم يكن فى الحقيقة يدير إلا المدينة، ويولى الولاة وينتظر منهم نصيب الدولة. لقد انفصل منذ البداية الدين عن الدولة، وإن كان أساس الشرعية والتشريع فيها. ويبدو هذا الانفصال فى شخص معاوية نفسه فى الشام. فقد حاكى الأباطرة البيزنطيين فى كل شىء وبهرت فخامة عيشه عمر وأغضبته عند زيارته للشام. ولكن معاوية السياسى أقنع عمر المتفتح، بقبول هذا الأسلوب الذى يفصل الدين عن الدولة. والدارس الحقيقى لتاريخ الدولة العربية الثانية العلمانية ذات الشرعية الصورية الدينية عليه أن يبدأ بتاريخ تولية معاوية على الشام وشريكه عمرو بن العاص على مصر الذى لم يقل قط علمانية وفخامة مظهر عن معاوية. من مثل هذا المنطلق نبدأ فى دراسة الفكر السياسى المحض وما قابله من ردود فعل ونشأة أفكار سياسية أخرى لم تجد مناصا من البحث عن أساس دينى يواجه به الشرعية الدينية لبيعة معاوية. فاستخدام الدين فى السياسة هنا تفسير لنصوص دينية وليس الدين نفسه.

نكتفى بهذا القدر فليس هدفنا التأريخ وإنما ضرب المثل لضرورة إعادة النظر فى التاريخ العربى الوسيط الذى يبدأ بالإسلام ويستمر إلى اليوم على أنه تاريخ بشر وتاريخ عرب.

وعلى غراره ينبغى النظر إلى تاريخ الأدب على أنه تاريخ لإنتاج عقلى إنسانى يرتبط بكل عناصر التاريخ الأخرى لكنه له خصوصيته كأدب. وهكذا ينبغى تنقيته من أسلوب دراسته الأولى الذى تلقاه أول ما تلقاه تلقيا خلقيا ولغويا، يعين على فهم الحكمة من ناحية وعلى فهم لغة القرآن الكريم والحديث الشريف من ناحية أخرى.

وفى التاريخين العام منه والأدبى لابد من وصل ما انقطع من جذور وليشمل العصر الجاهلى كل تاريخ العرب القديم. هذا سبيلنا الوحيد لكسر النمط العلوى المستورد بما يحمل من وعى أعد على مقاسنا مثلما تعد لنا الملابس الجاهزة، إنه لا حاضر لنا ولا مستقبل بدون الوعى بالتاريخ، ولنضع التاريخ فى مكانه فنحن الآن ننظر إليه على أنه مادة أساسية فى المدارس وتخصص من تخصصات الجامعة ومهنة لبعض الناس ومصدر من مصادر المعرفة التى تعظ أو تمتع أو تزين الشخصية التى تحب أن تستعرض معرفتها بكل شىء فضلا عن أن معظم التصور العام يتمثل ملوكا وعصورا وبعض أسماء من الأفذاذ وضاع الشعب فى الآخر كما ضاع فى الأول فسقط الجميع من التاريخ. ومن يسقط من التاريخ يسقط وجوده بسقوط وعيه بنفسه، وما نحن فيه شاهد(٣١).

## (٤)

## الوضع المعكوس

الأدب جزء هام ومركزى من أجزاء الثقافة والثقافة بالضرورة إنتاج اجتماعى، وبالتالى فإن العنصر المهيمن لابد أن يطبع الثقافة بطابعه[٣٢] . والعنصر الذى هيمن فى المجتمع هم من أطلق عليهم ابن خلدون العرب [٣٣] . ويقصد بهم البدو الذين يغلب عليهم الرحلة والانتماء القبلى، وهؤلاء العرب الذين يبدأ ظهورهم بهذا الاسم فى المصادر اليونانية بقرون عديدة قبل الميلاد هم سكان البادية من الخليج حتى شرق وادى النيل [٣٤] . ولاشك أن ظهورهم فى المصادر اليونانية لا يعنى بدء وجودهم وإنما يعنى بدء وجود الحضارة اليونانية المكتوبة وكذلك امتدادهم من الخليج إلى شرق وادى النيل - كما تذكر المصادر العربية العديدة - لا يعنى عدم عبورهم الوادى حيث الامتداد الهائل للصحراء الكبرى الذى يوافق مزاجهم بل وأمنهم كما نرى من نصائح عمر بن الخطاب إلى عساكره وقواده بأن يعسكروا دائمًا والصحراء إلى ظهرهم، حتى يتهيأ لهم أمن الفرار - عند الخطر الداهم إلى الصحراء حيث يتفرقون ويشعرون بالألفة[٣٥] . وليس معنى كل ذلك أن الكثير منهم كانوا لا يستقرون فى وديان الأنهار العربية فى دجلة والفرات والنيل، وأنهم كانوا

مصدر تمويل بشرى دائم لهذه الوديان التى كانت تحتاج لهم للعمل العسكرى لخشونتهم وجرأتهم، وهم أيضًا كانوا مصدر تهديد لهذه التجمعات السكانية العربية المستقرة فى مدنية زراعية على ضفاف الأنهار، وكثيرا ما يكون استقرارهم بعد شىء من الغزو، وقد اشتهر منهم فى التاريخ القديم حمورابى صاحب القانون المشهور. والبدو كما يبدو فى نظمهم حسبما وصل إلينا بارعون فى صياغة القانون والحكمة، ونشير إلى نظم بعض القوانين البدوية فى معلقة زهير بن أبى سلمى، وهؤلاء البدو بهذا الأسلوب من العيش مع ممارسة بعض من استقر منهم فى الواحات - وعلى رأسها مكة - قسطًا ذا قدر من التجارة قد عرفوا معرفة جيدة ما أحاط بهم من حضارة ما استقر حول الأنهار من العرب فى العراق واليمن والشام ومصر[٣٦]. هؤلاء البدو تميزوا بثقافة العربة أى الحركة أو القافلة المتحركة وعربة نقيض مصر أى المدينة المستقرة الزراعية. ولعل إطلاقهم اسم مصر على مصرنا العربية انطلق من اعتبارها المصر الأكبر، ولعلها كانت أول ما عرفوه من أمصار وإن حاولوا خلق سبب أسطورى لهذه التسمية فقد أنجب بطلهم الملحمى سيف بن ذى يزن ابنا أسماه مصر وملكه على أرض حملت اسمه هى مصر[٣٧]. ولكن فى ظنى أن مصر هى المدينة المستقرة المقابلة لعربة، تلك الجماعة البدوية المتجولة. وهكذا انقسم الوجود العربى قبل الإسلام إلى أمصار على رأسها مصر وعرب يجولون فى الأرض حربا وفسادا كما يتصور ابن خلدون. ولكنهم

يستوعبون ما حولهم من مدنيات يحاولون معرفة نقط الضعف فيها لمشاركتها خيرها، أو يشرعون فى التحالف معها والتمدين، ويبدو أن هؤلاء العرب كانوا غير قابلين للهزيمة إلا من نظائرهم ويفسر ذلك تحالف الفرس مع المناذرة لحماية حدودهم من غزوات العرب المستمرة، أيضًا تحالف الروم مع الغساسنة ينطبق عليه نفس الكلام. ولعل هذه القاعدة تنطبق أيضًا على عموم العرب اليوم، فلم يهزم العرب إلا العرب، ويفسر ذلك تلك التحالفات الاستعمارية مع بعض البلاد والطوائف العربية ودفعها ضد البلاد أو الطوائف العربية الأخرى(٣٨).

وبظهور الإسلام يهيمن العرب على كل الأمصار العربية تحركهم عقيدتهم الجديدة وتجذبهم وشائج القرابة مع هذه الأمصار التى كانت خاضعة للاستعمار الفارسى أو الرومى، وتحتاج إلى مد يد المساعدة إليها لتحريرها. ويتوسع العرب فيما وراء الأمصار العربية إلى حدود الصين شرقًا وجنوب فرنسا غربا، وتتسع هجرتهم وتقبل إدارتهم وهيمنتهم ويبدأ تدريجيًا هيمنة ثقافتهم على الآخرين، وأيضًا انفتاح هذه الثقافة(٣٩). ومع مضى الزمن تصير كل الأمصار والعرب، أى ما استقر وما كان بدويًا، داخل دولة عربية واحدة ولغة عربية واحدة ويحملون اسما واحدًا، هو اسم العنصر البدوى: عرب. وهكذا يتوحد إطار هذه الأمة داخل دولة واحدة وأرض واحدة ولغة واحدة واسم واحد «عرب» فتكتمل مقومات الدولة باكتمال مقومات الأمة

من قبل قيام الدولة، ونعنى بذلك الثقافة السابقة التى أظن أنها كانت ذات اختلافات كمية وليست نوعية، واترك الأمر للدارسين لتاريخنا لو أخذوا الأمر بما أقترح، لكن المؤكد أن البدو المهيمنين بعد الإسلام كانوا على علم تام بما يحيط بهم من حضارة مستقرة وأنهم أخذوا منها بقدر حاجتهم المحدودة فى ظل أسلوب الرحلة أو الاستقرار المؤقت بين الحين والآخر، ويؤكد ذلك أن بعض المستقرين قد تحولوا إلى جزء جوهرى من البدو وصار عربة بعد مصر، وأقصد بذلك القبائل اليمنية التى هاجرت بعد انهيار سد مأرب، ولعل إعطاء اسم مصر لابن سيف بن ذى يزن يخلد ذكرى مصر اليمن وأما حكمه لأرض مصر فهو طموح اليمنى المصرى إلى العودة إلى حياة الأمصار. وأيضًا هناك العرب التى أبت الاستقرار حتى اليوم مثل بدو الصحراء الغربية فى مصر وغيرهم من البدو الذين يعيشون على حدود الوادى ولازال يطلق عليهم اسم العرب، وهم من جانبهم يطلقون على غيرهم اسم الفلاحين وهم شرسون مخربون ذوى غارات حتى عصر قريب، وأكاد أجزم أنهم من قصدهم ابن خلدون فى مقدمته.

والفرق النوعى الخطير بين ثقافة العرب، وثقافة الأمصار أن الأولى شفوية والثانية مدونة، ومع ذلك فقد عمت الأمية فى معظم الأمصار فى ظل الاستعمار وتدهورت لغاتها، وبذلك حمل الناس تراثهم شفويا فى أغلبهم. وهكذا يغزو الطابع الشفوى التدوين، ثم يدعم هذا الطابع وجود أسباب دينية للتمسك بالشفوية بجانب أمية

الأمصار التى ساعدتها على استيعاب الثقافة الشفوية بل والتحمس لها، وبهذه الطريقة يقوم التراث العربى كله على الرواية الشفوية، وحتى بعد عصر الكتابة يتم توثيق المكتوب بالرواية الشفوية ويصبح السند أصلا لصحة المتن أو عدم صحته، كما يصبح حفظ النص وترديده أمام مؤلفه أو الشيخ أساسا لإجازة روايته وتعليمه وإذاعته. ومن ثم تقوم هذه الثقافة على الحفظ والذاكرة والرواية. وهذا وضع معكوس تماما، حيث يتم توثيق المكتوب بالشفوى والمروى، ويقوم العلم على الذاكرة والتعليم على التلقين والحفظ. ولعل هذا الوضع المعكوس يوازى سيطرة البدو من العرب على كل العالم المتحضر فى ذلك الزمان فقد هيمن المتجول على المستقر كما هيمن الشفوى على المكتوب وكما يهيمن البدو على الدول المتحضرة كل حين من ذلك الزمان حسب نظرية ابن خلدون التى استنبطها من مشاهداته فى المغرب والتى تصدق على كل التاريخ العربى الوسيط من عصر ظهور الإسلام حتى اليوم فى شىء من التوسع والمرونة فى التطبيق.

سيعطى هذ الوضع المعكوس للأدب العربى خصائصه العامة التى ستفرض عليه أنماطا من البناء والدلالة لا مهرب له منها إلا بسقوط دور الذاكرة، وتدمير عقلية التسجيل الشفوى لكل شىء، والإصرار على التحديث فى كل المستويات. باختصار الوضع المعكوس يخلق نمط الارتجال فى كل مناحى الحياة ويفرض أساليبه التعليمية منها التلقين فى كل سلم التعامل مع الأدب، والارتجال اجترار واستهلاك ذاتى وبناء من أنقاض، ينقض لتشييد بناء آخر وهكذا فى جو أسطورة الغزل المنقوض أبدا، واستنساخ الأنماط فى ظل قانون التماثل.

وهذا النمط «الارتجال» تحول فى ظروف تاريخية معينة إلى نمط ثورى بالغ الثورية فى زمنه عندما انفتح له باب التاريخ، وامتلك الوعى بأسباب ما عنده من قوة مبددة، وما عند كل الدول المحيطة من أسباب الضعف المتجمعة، إن القوة المبددة أمام الضعف المتجمع يمكن أن تحقق انتصارات جزئية متفرقة لكن هذه الانتصارات لا تصل إلى وعى الضعف المتجمع، فيبدو شامخًا منتصرًا، حتى أنه باستخدام المقاييس النمطية السائدة تبدو هذه الصورة الزائفة، إمبراطوريتان عملاقتان تتقاسمان العالم فيما بينهما لهما من أسباب القوة الساحقة فى مواجهة مجموعة من القبائل الهمجية المتناحرة غير المنظمة. هذه صورة العالم قبل الإسلام بقرون وحتى بدايات إسلام العرب. الظاهر قوة متجمعة أمام ضعف مبدد. وتلك صورة زائفة تمثل أيضًا بمعايير الدقة صورة معكوسة، ضعف متجمع فى الإمبراطوريتين أمام قوة مبددة عند العرب فى باديتهم لا فى أمصارهم، فالأمصار العربية جميعا خاضعة لاستعمار الإمبراطوريتين، اليمن والعراق يخضعان لفارس، والشام ومصر وشمال إفريقية قد احتلتهم جحافل الروم البيزنطيين، وفوق ذلك فقد سيطر الفرس على الحيرة من بلاد البدو وسيطر الروم على بلاد الغساسنة، وأرض الحيرة والغساسنة جميعًا هى موطن العربة أى اختراق بدو الجزيرة نحو ما يطمحون إليه من خضرة وهجرة واتصال، وهذه الأرض هى السور غير المنيع الذى أقامته الإمبراطوريتان ضد غارات العرب، فضلا عن تبادلهما احتلال

اليمن للسيطرة على البوابة الخلفية لشبه الجزيرة فلعلهم من هناك يتسنى لهم السيطرة على العرب الذين اضطروا - من أجل حب البقاء - إلى تحقيق شيء من الوحدة صارت مكة رمزها، وصارت السيطرة الإمبراطورية على مكة - ولو عبر اليمن - السبيل الصارم للسيطرة على العرب من نواة وحدتهم، لقد لاحظ البدو فى غاراتهم على فارس والروم نجاحًا ساحقًا كما لاحظوا أن فارس والروم لن يقر لهما قرار حتى يتم لهما سحقهم، ومع انتصاراتهم الجزئية ازدادت ثقتهم فى قوتهم ووعيهم بتلك القوة وهو وعى بالضرورة ينبنى على الوعى بمدى قوة الآخر، وبالقياس تكون النتيجة لصالح العرب، ومع توالى الأحداث مع براعة العرب فى أمور الحياة العملية واتسامهم بالتأمل العميق فى كل شيء بدأ العرب يدركون عوامل الضعف عند غيرهم، وعوامل الضعف عندهم، أيضًا عوامل القوة هنا وهناك. إن عامل الضعف الوحيد عند العرب هو الفرقة والتشتت، وهو تشتت مرتجل لا يوجد له أسباب جوهرية غير تعدد أنساب وبعض الحوادث ومعظمها خلافات حول الماء والكلأ - وقد ترتب على تعدد الأنساب تعدد الآلهة، وفى مرات أدى تعدد الآلهة إلى تعدد الأنساب. أما الحوادث حول الماء فيمكن حلها بإقامة أحلاف تبتدع نظاما لتوزيع الماء بجانب أن خارج الجزيرة يوجد ماء وخير كثير، وفيما يقومون به من تجارة وغزو مصدر لرزق كثير. إن هذه التأملات ستتحول إلى وعى بالقوة وبضرورة استكمال القوة بشيء من الوحدة. والتفكير فى

الوحـــدة لا يمكن أن يصنع الوحـــدة إذا لـم يكن يصـــاحب الوعى بضرورتهـا وعى آخر باكتشاف عناصرها فى الواقع، ومن ثم تنمية هذه العناصر والأسطورة هى الحامل الأكبر لعناصر التاريخ الضائعة وغير المدونة، وكانت أسطورتهم الكبرى تدور حول كعبة فى مكة وإله واحد أكبر (الله)، وكل الآلهة الأخرى مجرد وسائل إليه. أيضًا أب واحد وكل الآباء تنتهى إليه، أخيرا لغة واحدة كل اللهجات تصب فيها وصارت مكة هكذا مقر الكعبة ونواة الوحدة معملا مستمرا يشتغل فيه صناع الوحدة ليل نهار، وقد تم تنظيمها وتوزيع الاختصاصات فيها بدقة ووعى وتدفق العرب يحجون إليها فى عملية اكتشاف لكل ما هو مشترك وتنميته ويشرق وجه ثقافة موحدة تضم دينا بين آلهة متحدة تحملهم نحو الله وفنا موحدا تتخلق فيه روحهم وأساليب فى التعامل وقوانين تفتح لفض الخلافات أبوابا، وأخيرا فضلاء يحسنون توجيه الأحلاف وفض الحرب والنزاع(٤٠) .

وينتظر الجميع الدولة التى تواجه الدول والفاضل الذى يقود كل الفضول ويتحول الانتظار إلى نبوءة، وتتحقق النبوءة ويظهر النبى ﷺ بدين يقوم على التوحيد المطلق لله القادر على التوحيد المطلق بين البشر. جاء محمد ﷺ وكل الأرض ممهدة، ولن يلقى من صراع سوى من الفضول الذين طالما تطلع كل منهم لهذا الشرف. وبنفس الوعى يكتشف الجميع أنه أفضل الفضول (باصطفاء الله له دون كل فضولهم وفضول العالمين) فتقل شعبيتهم كما أن من الفضول من يصل إلى

نفس الكشف فيتجمع حوله عامة الفضول ويتكاثر هؤلاء من جميع الأنحاء إلى أن يجد فيه فضول يثرب بما يشبه الإجماع حلا لخلافاتهم، وينصبونه عليهم قائدا، وينتقل الرسول ﷺ من مرحلة التبليغ والتعليم إلى مرحلة الحكم بجانب التبليغ والتعليم. وتبدأ دولة العرب بعد طول انتظار وتتحول قوتهم المبددة إلى قوة متجمعة تسودها ثقافة الارتجال التى تدور حول واحد أحد مطلق هو الله تعالى، ويدير دورانها ولاء جديد واحد فوق كل ولاء، هو الولاء لدولة المدينة(٤١).

أما عامل الضعف عند عدوهم فيبدأ من سلسلة ممتدة منهكة من الحروب بين إمبراطورية الروم وإمبراطورية فارس وتخلخل نظام الوراثة مما خلق المنازعات والحروب الداخلية بجانب أقاليم مستعمرة غاضبة وثائرة يقوم عليها ولاة قليلو الولاء لسادتهم الأباطرة كثيرى الولاء لأنفسهم، وأخطر من ذلك كله نظام بيروقراطى عتيق بالغ التعقيد، بطىء الحركة، كثير الفساد (٤٢).

إن النمط الذى يسود فارس والروم هو النمط البيروقراطى الفاسد. الذى سيجعل الولاء الوحيد للمكاسب المالية، وسيسيطر هذا النمط على الجيوش الإمبراطورية التى يغلب عليها الارتزاق فالجندى يحارب من أجل راتبه، إن هذا النمط يتآكل مع الزمن ويؤدى إلى إفقار الدولة وانهيار هيبة كل ولاء فيها.

ومقابلة البيروقراطية بنظام الارتجال العربى بحسن إدارته الجديدة

وولائه المطلق لله ولدولة المدينة ولمشروعه الاستراتيجى بنشر الإسلام دين الحق وإظهاره على الدين كله سيجعل من النظام العربى نظاما يقوم على المفاجأة والهجوم والاعتماد على البديهة وخفة الحركة مع روح معنوية عالية ودربة على الغارات التى تشبه حرب العصابات. إن الجيش العربى بانتمائه إلى الدولة صار جيشًا نظاميًا يتمتع فى نفس الوقت بكل خبرة حرب العصابات، وهو جيش له أهداف استراتيجية يستمدها من الدولة لكن لقيادته حرية الحركة تكتيكيا دون قيد بيروقراطى واحد وكل أفراده من المتطوعين الذين يحلمون بالنصر أو الشهادة، لا يخشى من قائده قطع مرتبه ولا يرجو منه ترقية كما لا يخشى من عدوه موتا ولا يقبل منه مهادنة إلا بالدخول فى الإسلام أو فى الطاعة ودفع الجزية. إن كل جندى له من حرية الحركة فى حدود الاستراتيجية المشتركة ما يجعل من جميع الجنود جنرالات وقوادا. فلا غضاضة أن يتحول القائد العام إلى جندى، والجندى إلى قائد عام... وتلك ثورية نمط الارتجال أمام نمط البيروقراطية [٤٣]. وأخيرا فحركة هذا الجيش الأولى كانت داخل المستعمرات الفارسية والرومية التى مل سكانها من سوء المعاملة وتربطهم وشائج القربى والأصل الواحد مع العرب، من ثم سارت الجيوش العربية مدعمة بكل القوى الشعبية الواقعة خارج السلطة وتحت قبضتها فى آن.

والانتصار الساحق السريع لنمط الارتجال دعم هيمنته وسطوته على كل عناصر الثقافة بما فيها الأدب، وسيكون الارتجال الصفة

المميزة للحضارة العربية الوليدة، وهنا تبدأ دورة جديدة من الحضارة بميلاد نمط ثورى ثقافى مقابل الأنماط البيروقراطية المحافظة المنهزمة، والتى ستحاول أن تبقى على قيد الحياة داخل النظام العربى أو داخل نمط الارتجال فى ثوريته وانفتاحه على كل جديد باتساع دائرته العالمية الجديدة!

## (٥)

# نمط الارتجال[٤٤]

إن نمط الارتجال هو انعكاس فى الواقع لتركيبة عقلية محددة. ولاشك أن هذه التركيبة قد تم تشكيلها عبر عشرات القرون استجابة لممارسات ذات دورات تكرارية فى الواقع بكل معطياتها ابتداء من المعطيات الفلكية وانتهاء بنوع الطعام السائد ومصدره. وتكاد تبدو التركيبة العقلية المحددة ثابتة ومجمدة فلم يعد هناك من جديد يضيف إلى عناصرها البنيوية، والحقيقة غير ذلك، إنها دائبة التغيير المحدود جدا والبطىء جدا فقد تشكلت ميكانيكية لعملها ذات ثبات نسبى مذهل وهذه الميكانيكية هى التى تحدد قبول التغيير وطبيعته وسرعته طبقا لفلسفة جوانية فى رؤية العالم. وخطورة ذلك أن العقلية فقدت معظم تفاعلها مع الواقع وحدث فيما بينه وبينها انفصام فيكاد يتوقف الفعل الإنسانى ويتمرد الواقع ويقود الإنسان وليس العكس، وتصل العقلية إلى هذه التركيبة بعد أن يفقد النمط ثوريته.

أهم عنصر من عناصر الارتجال هو الوراثة بمفهوم واسع لهذه الكلمة ولكنه دقيق. وسيتحدد هذا المفهوم بعد اختبار بعض الوقائع.

الشاعر زهير بن أبى سلمى ابن شاعر، وأخته سُلمى شاعرة وأخته الأخرى الخنساء «نار على علم» فى الشعر ثم إنه أنجب ولدين صارا

شاعرين «كعبا وبجيرا» وحفيده المضرب بن كعب شاعر وأخواله شعراء، وفى النهاية هو صبى لشاعر كبير هو أوس بن حجر. إن هذه الصورة تتكرر مع غيره من الشعراء فكلهم يرث الصنعة بالبنوة أو بالتبنى لأحد الشعراء أو بهما معًا فزوج أم زهير شاعر تبنى ربيبه وسقاه أصول العمل. إن ظاهرة الوراثة ظاهرة تكاد تعم كل مناحى الحياة المادية والماوراء مادية، وهى ظاهرة توجد فى أنماط أخرى مثل نمط «الإقطاع النظامى اليابانى» وفى كل الأنماط الشرقية كما أنها تميز الحياة التاريخية القديمة حتى نهاية العصور الوسطى لكن اتساع مفهومها فى نمط الارتجال العربى يتجاوز فى رأيى كل الأنماط الأخرى، فهذه صورة الشاعر العربى زهير تنطبق على كل الشعراء والكتاب حتى اليوم وستظل تسيطر فى كل العصور، فهذا معاوية يعيد لبيته السيادة على قريش التى سلمت كل القبائل الأخرى باعتبارها قبيلة الإمامة، وإذا رأينا سلسلة من الأنساب تتنازع السلطة العليا ونعنى بها الخلافة فإن المناصب الأخرى أيضًا وراثية بطريقة مملة فالمسعودى يخبرنا عن المسمى أحمد بن عبدالله وكنيته أبو الحسن كان آخر أربعة و عشرين رجلا تولوا القضاء من نسب محمد بن عبدالملك بن أبى الشوارب، وفى العصر الحديث إذا عرفنا ما يسمى بمعضلة أبناء الأساتذة فى كلية الطب حيث يفرضون على الكلية ويتصدرون قوائم النجاح وتنتظرهم مناصب الأستاذية وعيادات آبائهم ومستشفياتهم.

إن هذا لن يختلف عما نراه فى القرية المصرية فلها نجارها وحلاقها وخفير مياهها وجساس بهائمها ودايتها ومؤذنها، إنهم جميعا يكادون أن يكونوا الجيل الواحد بعد الألف فى ممارسة نفس المهنة ومعرفة بعض أسرارها الخفية دون كل خلق الله.

ووظائف الحكومة ليست وظائف وإنما هى موظفون، إن الموظف يحق له أن يقول «أنا الوظيفة». وتنقل مهارات الموظف إلى آخر بالوراثة النائبية. إن نائب الموظف يصير بحكم ابنه أو عبده فى أناة ويتعلم منه الجانب السرى من المهارات عبر أزمان من الملازمة والطاعة. إنه وراثة بالمفهوم الصوفى للكلمة فالمصطلح من أخطر مصطلحات متصوفينا. فالوراثة تنتقل عن طريق المشايخ فالأقدم دائما هو الشيخ أو الأب يمارس سلطة قمعية بما يحمل من أسرار موعودة يهديها للتلميذ فى الوقت الذى يراه مناسبا. إن تحديد وقت حلول إذاعة سر من الأسرار يعد من مظاهر براعة الشيخ إلى حد السحر والإبهار، فعادة ما يترتب على معرفة السر النجاة من كارثة محققة تجعل من الأب أو الشيخ قطبا متبوعا لما يظهر من كرامات!!

إذا استعرضنا جميع نواحى حياتنا لهالنا تفاقم نظام الوراثة. إننا لا نكاد نحس به لأنه جد مألوف لعيوننا وآذاننا بل ولعقولنا. والكارثة التى تجعل هذا النمط أكثر ألفة هو أننا نغرق فى بحر من الوراثة فكل الشرق يعج بمظاهرها فهذه عائلات ترث العرش الجمهورى فى الهند «وباكستان وبنجلاديش» (عرش المعارضة) وسيلان..، وها هى

تدرك العالم العربى متجاوزة كل حدود، إننا لا نكاد نصل إلى الحد الأدنى من الوعى بخطورة عنصر الوراثة فى تحريك حياتنا وتحديد مصيرنا وإفساد كل أمل فى التجديد والتقدم. وليس ذلك لوجود خلل محدد فى الوراثة (فوراثة التاج البريطانى لم تصنع شيئًا من الشر) وإنما فى ارتباط هذا العنصر بكل عناصر الارتجال مما يجعل له ميكانيكية فى الحركة يحكم فيها دائما الأقدم وليس أمام الأحدث إلا انتظار أن يصير قديما بكل ما تعنيه الكلمة.

إن الوراثة ابتداء من حلاق القرية وجساس البقر وانتهاء بالحاكم (كل منهم يرى نفسه صاحب حق مطلق وتفويض إلهى) يؤدى إلى تحول القوة المنتجة أو القوة المديرة والمبدعة إلى قوى مهنية محافظة يحكمها ما هو أكثر قدما دائمًا.

وفى ظل الوراثة (ما عدا مرحلة الطور الثورى من النمط) يستحيل أى عمل جماعى فالأقدم يسوق الجميع بعقلية الراعى والجميع يتحرك بعقلية القطيع. إن من يجيد ممارسة الرعى لكن مع البشر سوف يسوق قطيعهم وسيكون دائمًا التلميذ الذى صار قديما بإجازة أستاذ أقدم[٤٥] وهذا الراعى يحرس القطيع ويحرس نفسه بتثبيت وجوده كقيمة إنقاذ. (المركب اللى فيها ريسين تغرق، يا بلد من غير كبير، من لا شيخ له فشيخه الشيطان، من فات قديمه تاه). إن سلسلة من المعتقدات تجعل من الوارث سيدا له حقوق ملكية روحية مطلقة ينجو ببركتها كل مملوك.

ومع كل ما سبق فكل وارث يحاول المخالفة لكى تتبين شخصيته وتتميز، وآيته فى ذلك (كل شيخ وله طريقة). والمخالفة شكلية وضئيلة تكون بالتشدد فيما كان السابق يتساهل أو التساهل فيما كان السابق يتشدد وربما تكون فى تحديد أولويات التنفيذ وشكلياته. إن آيتها (خالف تعرف). إن الباشكاتب الجديد يصمم على أن تكون التوقيعات بخط واضح وأن تكون فى الصفحة المواجهة. إنه أغلق كل الملفات السابقة وخلق ملفات جديدة بأرقام مخالفة وموضوعات أكثر تخصصا. . إن الوزير الجديد أوقف بناء المصنع حتى يعيد النظر فى أولويات الخطة.

وأخيرا إذا رجعنا للأدب وقصة البحترى مع أبى تمام، إنه يذهب إلى أبى تمام كشيخ فيعطيه تعليمات بحفظ كل الشعر القديم، وعندما ينتهى التلميذ من حفظ بعض المليون من الأبيات يطلب منه المعلم أن يذهب وينساهم ويفعل التلميذ ويعود إلى الأستاذ ويخبره بأنه نسى ما حفظ ويدرك أبو تمام أنه قد دفن تلميذه تماما فى مقبرة القديم وأنه صار وارثا فيأذن له ببدء المهنة. ويبدأ البحترى مخالفًا لأستاذه ومناهزا له فى المقام. ماذا فعل أبو تمام مع البحترى؟ إن أحدا لا يستطيع أن ينسى ما حفظ إجمالا لكن الذى حدث أن محفوظ البحترى سيتفتت إلى صيغ وتراكيب لا نهائية يضمها إلى بعضها وهى تنساب كالنهر من ذاكرته ليعبر عما يريد بطريقة الشعراء القدماء لقد شحنه أبو تمام بوقود ذرى بدوى موروث لا ينفد وحجب عنه بعض أسراره حتى لا يتميز

عليه وكان على البحترى أن يمضى حياته كلها فى محاولة مستمرة لاكتشاف تلك الأسرار المحجوبة .

إن كل قديم وارث حمل عبء المشيخة يرى أن الصنعة لها نوعان من الأسرار . سر علوى يعجز عن فهمه وتفسيره جعل الشعراء يتنبون ويحتلون مكانة خاصة فى العصر الجاهلى ثم فيما تلاه من عصور ، وحاولوا نسبة هذا السر إلى شياطين الشعر التى تسكن وادى عبقر ، وأما النوع الآخر من الأسرار فهو إجرائى يتمثل فى نصائح أبى تمام للبحترى ، ولم يخل عمل من السرين معا . السر الأول يقسم الشعراء إلى طبقات ويتيح بين من يعرفون الجانب الإجرائى الواحد درجات من التفوق والتجاوز . ونفس الانقسام إلى طبقات ينطبق على كل صنعة وكل سلوك فى حياتنا .

إن ما سبق منح استمرارية عجيبة لعدد من التقاليد والأنماط التحتية المتفرعة عن نمط الارتجال الأعلى وصار الشيخ الأكبر فى العملية الحياتية هو النموذج الأقدم . وكل من خالف النموذج سيصير فردا منبتا عما قبله وعما بعده ولن يحظى بالمشيخة قط لكنه سيحظى بالشهرة والبروز المستمر كظاهرة تستعصى على التفسير والمثل القريب لعملنا هو ابن خلدون!

والعنصر التالى فى نمط الارتجال هو أسلوب النقل[٤٦] . ويكاد ينضوى هذا العنصر ضمن عنصر الوراثة إلا أنه بعامة يعد - على الأقل - امتدادا له . إنه أسلوب إجرائى يكشف عن ميكانيكية الوراثة داخل نمط الارتجال .

كما يقول المتصوفة إن أسلوب النقل هو أخذ المعرفة ميتا عن ميت، إنه إلغاء للتجربة الشخصية وخضوع مطلق الثبات لنصوص منطلقة الحركة. والثبات هنا إلغاء للذات، والحركة بدورها تشويه للنص وتغميض له. كيف يتم ذلك؟ إن المنقول لابد أن يتم عن طريق أحد الرواة، وكل راو يحمل فوق كتفه سلسلة من الرواة. إنها سلسلة تتفاقم مع كل جيل، ويشترط فى الراوى أن تكون له ذاكرة الديناصور. ومع ذلك فلعمل الذاكرة قانون، إن الراوى مهما تحرى الدقة لا يستطيع أن يهرب من قوانين الذاكرة. والقانون الأساسى للذاكرة يقوم على ما يسمى بالهيكل والوحدات.

إن كل نص مروى له هيكل متوهم ونضرب له مثلا عمود القصيدة العربية والهيكل ملىء بالوحدات مثل الكلمة المفردة والصيغة والقافية والروى والوزن والشطرات والأبيات. الذاكرة تحتفظ بالوحدات الأساسية فى تكوين الهيكل مثل الوزن والقافية والمطلع والخاتمة والتشطير والأبيات... إلخ. لكن كل الوحدات التى لا تضر بالهيكل ضرراً ظاهرا تقبل دائمًا ما نطلق عليه الإسقاط والإبدال. إذا سقطت وحدة لجأت الذاكرة فورا إلى إبدالها وتحل محلها وحدة مساوية فى الحجم ومساوقة فى الكيف حتى تتم المحافظة على الهيكل. وهكذا تتعدد الروايات للنص الواحد ومن هنا استمرار حركة النص مما يفتح بابا واسعًا للاختلافات داخل الموضوع الواحد، الأمر الذى أدى إلى اختراع المأثور «اختلاف أمتى رحمة». أيضًا

الذاكرة يمكن أن تسقط بعض وحدات السند فتغفل عن سقوطها أو تتنبه فتستبدلها بوحدة جديدة مساوية حجما ومساوقة كيفا. إلا أنه يلاحظ بين الحين والحين أن الإسقاط والإبدال قد يؤدى إلى أخطاء وانحرافات عن الأصل.

إن الوعى بقانون الذاكرة لازال خافيا عنا رغم أن الغرب قد اكتشفه، لذلك ما زلنا نتحدث عن الانتحال فى الشعر والوضع فى الحديث والانحرافات الملفتة لنسخ مخطوطة بعضها عن بعض. وما زلنا فى خطأ مبين نحاول أن نبحث عن نسخة «أصل».

هذه قضايا جزئية، لكن المهم هنا هو اتساع مفهوم النقل عن كل المفاهيم الشائعة ولا سيما المفاهيم الدينية والأدبية. إن معظم معلومات السواد الأعظم من الأمة العربية تصله عن طريق النقل. إن كل معرفتنا تكاد تكون فولكلورية وتقليدية وتعتمد اعتمادا راسخًا على الذاكرة. وقد أدى الاعتماد على الذاكرة إلى تكوين شخصيات إنسانية مهزوزة وغير واثقة من نفسها. إننا نردد دائمًا «لقد خانتنى الذاكرة» إننا ننسى شيئًا ما دائمًا.

فأثناء أداء الأعمال كثيرا ما نكرر العملية الواحدة عدة مرات بسبب نسيان إحدى الخطوات. إن عقدة نسيان شىء تملأ العامل بالخوف مما يضاعف احتمالات النسيان عنده. أيضًا نحن نخاف من أن ينسى غيرنا ممن يعملون معنا أو تحت رئاستنا أو يشاركوننا فى عمل. إن كمية الوصايا حول إغلاق الباب بعد إطفاء النور ونزع الفيش تجعل بعض الناس:

يرجعون للتأكد من الأمر عدة مرات .

نحن أيضًا نخاف من الخطأ ونقع فيه وكثيرا ما نطلب التليفون غير المطلوب أو نطرق بابا لا نريده . إن مواعيدنا تتعدد فى نفس الساعة ونواجه المآزق . ومع ذلك فنحن أساتذة فى تلمس العزاء والاعتذار (معلهشى . الحمد الله اللى جت على قد كده، الحمل لله اللى تنبهنا قبل أن تحدث كارثة . لولا فضل الله ما كنت مررت بالصدفة واكتشفت المصيبة قبل ما تقع، قدر ولطف، اللى ييجى فى الريش كله بقشيش، المهم أن ماحدش أصيب، علقة تفوق ولا حد يموت) .

أيضًا الاعتماد على الذاكرة يجعل الإنسان خائفا من المفاجآت مفتقدا للثقة فى كل شىء . إننا دائمو الطلب للستر، ودائمو تفتيح العيون لأى حاجة مفاجئة . ودائما تأتى المفاجآت!

لكن ما مفهوم المفاجأة؟ إن تابع أسلوب النقل يتعامل مع المألوف والمتكرر فإذا أفرزت الظروف الخارجة عن حساباته المحفوظة والمعادة ألف مرة شيئًا غير مألوف يصاب بصدمة عصبية تدفعه للتوقف أو الحيرة أو الاضطراب وأخيرا اتخاذ ردود فعل طائشة تظن فى نفسها التوكل على الله وعلى الحظ وحسن النية . إن المفاجأة تأتى دائمًا لأن الناقل لا يعرف إلا قانونه هو وقانون كل مألوف له، إنه عاجز تماما عن اكتشاف قوانين أخرى أو تجاوز الإجراءات ذات التوالى الكمى إلى أى إجراءات كيفية (٤٧) .

إن أسلوب النقل يجعل التعامل مع كل شيء خارج قانون المألوف على أنه مفاجأة يمارس تجاهها ردود فعل طائشة غير محسوبة. ولا شك أن نتائجه وخيمة على المستوى السياسى والعسكرى والاقتصادى، فى ظل التعقيدات العالمية اليوم بعد تفاقم أدوات الاتصال.

إن انسحاب القوات المصرية فى سيناء مرتين يمكن أن يكون صدى لهذا الأسلوب ويضاف إلى هذا المثل إهدار الثروات العربية والتخبط السياسى العام. عامة سنعود إلى تنمية هذه الفكرة عند حديثنا عن عنصر «البرجلة» فى بناء نمط الارتجال فى شكله القديم الثورى والمحافظ الحالى.

إن الاعتماد على الذاكرة ينمى فكرة الحفظ والتلقين، ويجعل من مفاخر الأشخاص هرقلية الذاكرة. إننا نحول عقول أبنائنا فى نظمنا التعليمية إلى أجهزة حاسبة كمبيوترية. سيئة البرمجة، عشوائية العمل. إن الطفل المحشو بالمعلومات ينمو عاجزا مثل حمار يحمل أسفارا فهو لا يعرف فائدة حشوه العلمى أو كيفية استخدامه.

إن نقل المعرفة لفترة تتجاوز الألفى عام عبر الذاكرة أدى إلى تفشى الأمية وفقدان الحاجة إلى القراءة والكتابة. إن الأمية تكتسب قداسة دينية وعرفية تتجاوز الحدود، وليس غريبا الفشل الذريع فى محو الأمية. إن كل محاولة لمحوها تؤدى إلى تراكمها ودخولها فى مراحل من التحول الكيفى إلى عنصر هدام لكل المجتمع. وحتى النخبة التى

تدير المجتمع تضطر بوعى أو دون وعى إلى الاعتماد على ضعف ذاكرة الجماهير وتتعامل على كل المستويات بأسلوب خطابى، هو الوحيد الذى يصل إلى فهم مجتمع النقل الارتجالى.

لقد أدى تواتر أسلوب النقل إلى تراكم كل شىء حتى الزبالة، تتراكم القوانين واللوائح وتعديلاتها وتتراكم المبانى والبشر والروبابيكيا فى كل مكان. إننا نحرص على نقل كل قطعة من الحياة إلى الجيل التالى فى حرص يصل إلى حد البلاهة.

إن الذاكرة عبارة عن إناء زجاجى ملىء بالشروخ لكنه لا يريد أن ينكسر نهائيًا، وكلما لاح لجيل بعض الأمل فى الإفلات من قمعه وبطشه تحدث ردة من الجيل التالى تطلب العودة للسلف الصالح. إن الذاكرة ملجأ العجزة والبائسين والمحيطين والفاقدين للانتماء ومصدر الأحلام الوهمية اللانهائية. إنها اتساع شاسع من مستنقعات الماضى يضل فيها الحاضر ويدور حول نفسه. إننا فى هذا العصر المخيف نخوض حربا لا هوادة فيها للمحافظة على نظام من القيم الهشة إذا واجهت نور المستقبل ولكنها القوة الفاعلة ذات السمو السحرية التى تسرى فى العقول المنقبة. ولعل الذاكرة - فى سخريتها من كل شىء- تحاول أن تواجه تقدم الآخرين بسلسلة من الادعاءات بالتفوق والسبق لو أتقنا النقل بينما المتحدث غارق لأذنيه فى تبعيته للغرب لأن المرتجل المحافظ يعتمد على النقل الوراثى، وعندما يعجز التراث عن حل مشاكله يعتمد على النقل من الغير فهو بالضرورة ناقل، ولكن

أتوماتيكيا يتحول ما ينقله من غيره إلى تراث ذاتى له يورثه لمن بعده مع توريث تقنية النقل نفسها. إنه كائن استهلاكى محض منتج للكلام غير قادر على تجاوز القرد فى محاكاته لكل شىء يقبله أو يرفضه. إنه يفتقد حتى إرادة القبول أو الرفض بمعنييهما الحقيقيين. إن نموذجه الأمثل هو الحيوان المجتر أو الإنسان العربى يمضغ فى نعوسة بعض الحشائش المخدرة التى تبزغ شيطانيا فى أرضه. وما دامت «الذاكرة الحلم» هى الهدف الأسمى فالإنسان الناقل هو أفضل الكائنات الحالية لتناول المخدرات والكحوليات. إنه الزبون الأفضل لإمبراطورية السموم المخدرة (٤٨).

إن أسلوب النقل متحدا مع مفهوم الوراثة (الشيخ هو الأقدم، ووريث القديم له حقوق تفويض إلهية) يخلق حياة أشبه بالمتحف وهو ليس متحف قطع أصلية وحقيقية ولكنه متحف شمع كل من فيه نماذج تحاكى نماذج سابقة وكل هذه النماذج قابلة للانصهار والحريق فى مواجهة الواقع الساخن المتطور. إن كل نموذج يعيش بداخله «أب أو شيخ أو معلم» يؤنب وبكبت ويحدد كل شىء. إن كل نموذج يعيش الخطيئة الأولى بشكل مخالف لأصلها الدينى عند المسيحية. إن أصلها هنا أبوى أو حتى أمومى، إن النموذج يخطئ ويكرر الخطأ ولا يملك إلا الشعور بالإثم، فيعذب نفسه ويلهب الجيل التالى له بالعذاب. والشعور بالإثم وقود يقود للقديم تحت شعارات دينية مزيفة لا علاقة لها بالدين. إن مواجهته الوحيدة للإثم تكمن فى مزيد من

الحفر فى الذاكرة حتى تفقد الذاكرة العمل الحقيقى. إن المسؤولين أمام أخطائهم يبعثرون القرارت الشفوية التى ينسونها ويتركونها تعذب أصحاب المصلحة من وراء هذه القرارات فإنها ترتسم فى ذاكرتهم كحقوق يجاهدون فى الحصول عليها جهود الظمآن فى استمطار السراب.

والجميع يرفض الواقع ويقبله فى نفس الوقت والجميع أيضًا يبحثون عن مذنبين ومسؤولين عن الأخطاء دائمًا بعيدا عن المخطئين أنفسهم لما تحيطهم به الوراثة من قداسة ولما يزين جباههم من أزهار الغاز القديمة المنقولة. إن ما يردده دكتور فؤاد زكريا عن أسطورة الحاكم الذى لا يعرف (وهى على أفواه الجميع أغنية تجعل من الحاكم معصوما. بما يمثله من قيم القديم أما ما حوله من مسؤولين فهم المخطئون الذين يحجبون عن الحاكم المعرفة) تعكس فكرة الوراثة مع النقل إذا ربطناها بأسطورة أخرى أيضًا يرددها دكتور فؤاد زكريا من لسان الخلق وهى أسطورة التابع المغلوب على أمره. إن كل فرد ارتضى تلك التبعية فصار كل الأفراد تابعين مغلوبين على أمرهم وانتهى الأمر بالأمة كلها إلى تبعية مطلقة للغير. ومن المدهش أننى قرأت نفس كلام فؤاد زكريا على لسان كتاب قدماء فيما يتعلق بعدد كبير من حكامنا عبر التاريخ. إن ما لم يسجله فؤاد زكريا هو أننا لسان حال أجدادنا وحكامنا نماذج لأجدادهم ممن حكموا هذه الأمة فى القرون الخوالى، إننا ورثنا أسطورتى الحاكم الذى لا يعرف والتابع

المغلوب على أمره ضمن ميراث عريض تناقلته ذاكرة الأجيال فى نظام من القيم نجاهد لحمايته ويجاهد لتدميرنا .

وما سبق يقودنا لعنصر جديد من عناصر نمط الارتجال العربى وهو ما أطلق عليه «البرجلة» . إن هذا العنصر أصيل وكاد يئد الإسلام فى أوله لولا ثورية النمط الأولى التى لا تجعل سلبيات النمط قادرة على التفوق على إيجابياته . إننى أشير إلى ما حدث فى غزوة أحد . إن البرجلة من أبرز صفات الارتجال . إنه فقدان عنصر التوقيت الإجرائى وانعدام الالتزام بأى خطة فى مقابل الاندفاع العاطفى . إن المرتجل لا يملك الصبر على الدراسة ولا يملك شجاعة الاستماع إلى آراء الخبراء . إن مشكلته الأولى كيف يبدأ ، وهو لا يبدأ قط عن روية ولكن تحت ضغط يحفزه لأن يبدأ حيث لا خيار إلا الابتداء . وعندما يبدأ يندفع فى خطوات مكررة لخطوات من سبقه من السلف فى أداء نفس الشىء . إن بعض المستجدات تدعو أحيانا إلى بعض التغيير لكن الوعى المرتجل لا يدرك ذلك فيقع الهرج والمرج ويفلت زمام الأحداث . إن تأجيل أحد الأحداث أو تغييره يكون أحيانا ضروريا وبمعنى آخر أن كل شىء لا بد أن يتم بتوقيت دقيق يترتب عليه ترتيب كل شىء فى نظام أو نسق مخطط سابقًا تخطيطًا يعمل حساب الاحتمالات فتتم مواجهتها بهدوء . وفى نمط الارتجال لا يعرفون التخطيط فتتحكم الصدفة فى كل شىء وتصبح الحياة مقامرة بدون روح المقامر المغامرة ، وبذلك تضطرب ردود الأفعال على كل

المستويات فتعم الفوضى ويسود التسيب ولا يعرف كل ماذا عليه أن يعمل وماذا عليه أن يأخذ أو يترك . إننا نتحرك عين فى الجنة وعين فى النار نتعلق بقش فى خضم الأحداث وننتظر ضربات الحظ واستجابة دعاء الصالحين . إنه من المحزن أن ممارستنا المخلصة للدين لا تكون إلا فى وقت الأزمات ثم بعد ذلك ننصرف إلى خارج حظيرة الدين . إن استنفار القوى السماوية لم ينقذ هذه الأمة من الضياع ولم يحقق لها إلا مزيدا من الهزائم لأن الناس يطلبون من موسى ومن الله أن يذهبا فيقاتلا عنهم!

إن البرجلة معناها فقدان النظام المتحكم فيه . إن أعظم مظاهرة لها المدينة العربية وفى موازاة لها القرية . إنها تجمعات سكانية كمية وليست كيفية . نظام بلا نظام محكوم بل هو نظام حاكم لا تتدخل فيه إلا الطبيعة والعبث الفردى خيره وشره . شغب عمرانى فاقد للهوية والهدف . فوضى فى المرور . انفجارات فى شبكات الخدمات . مثل آخر لها مجامع اللغة العربية . لقد عجز العرب حتى الآن عن إقامة مجمع (أب) للغة الأم ولكنها مجامع إقليمية تكرر نفس العمل وتشارك فى خلق فوضى فى المصطلحات واضطراب عصبى فى أمعاء اللغة مما يدفعها إلى تقيؤ أسوأ ما فيها . نموذج ثالث الجامعات العربية ، إنها تكرر نفس الأبحاث ، وتصل الكارثة إلى إقامة الدنيا وإقعادها بعمل أبحاث نفضت جامعات أوربا يديها منها منذ عشرات السنوات فضلا عن عدم الجدية . فى البنية الحكومية تتعدد الجهات المنوط بها

عمل واحد وتعيش أجهزة الحكومة فى حرب أهلية حقيقية بجانب تكرر القوانين وتعارضها واستعصائها على الإحصاء والحصر. إن كل المؤسسات تبدو متمردة ومفلتة الزمام وتستحيل إدارتها والسيطرة عليها. فى كثير من بلادنا تبدو كل أجهزة الحكومة وكأنها أماكن مؤجَّرة «للمافيات» من الموظفين تبتز المؤجِّر (الحكومة) بقبض معلوم شهرى يجانب استثمارها للأجهزة الرسمية لتحقيق مصالحها الخاصة. أليس ذلك حق الوارثين؟! والمدهش أن الظاهرة انتقلت للقطاع الخاص. ما يطلق عليه فساد الإدارة يصبح مدحا وثناء على هذه الأجهزة لو وصفناها به، فلا توجد إدارة وإنما توجد سلطة تقوم على خوف الناس من عصا الجند ومن بدوات القانون. إن تماسك المجتمعات هش وظاهرى وكل شيء مبرجل لا يعرف له طريقًا سوى دوران برجلى فى دوائر مغلقة متكررة لا تعرف فكاكا من فوضاها شديدة التنظيم الوراثى.

وعلاج هذا الأمور يتم بشكل أكثر برجلة أجهزة رقابة بعضها من فوق بعض يبرجل بعضها بعضا لدورانهم فى نفس الدائرة مع تعقيدات أسطورية لأن كل دوران جديد فى دائرة النحس البرجلية معناه تبديد وقت ومال وإهدار لمصالح لإنشاء مصالح أخرى. باختصار تفاقم الحرب الأهلية وتفاقم الازدواج والانفصال. إن ظاهرة الكبارى فى مصر محاولة يائسة لوصل أسلاك مقطوعة بالية. تمسك شديد بالمكان وازدحام مرعب فوق نفس الملعب، يؤدى إلى صراع شديد وادعاء شرف الدفاع عن القديم!.

إن البشر بشكل عام تجرى فى فزع إلى أى اتجاه لكى «تهبش ما تستطيع» وتظهر أنماط بشرية مثل نمط الفهلوى والقواد وتاجر العملة والمرأة الفولاذية والأشخاص ثلاثية الأسماء التى يتشابه اسمها الأول مع لقبها كرمز لانحصار الحاضر بين قديمين. إن آخر الأجيال أشبه بأولها شبه تمثال الشمع بصاحبه. وفى ظل هذه البرجلة يتجه العاجزون إلى الله كى يقاتل عنهم ويزدهر التطرف الدينى والطائفى والمذهبى و القبلى والاقليمى، وتتلاشى أى إمكانية مستقبلية داخل غابة الشغب العمرانى.

وفى ظل هذه الغوغائية يجد تجار المخدرات والسياسة والسلاح والدين وعملاء القوى العظمى حقلا براحا سداحا مداحا لا يعرف فيه الحابل من النابل فتتطرف جند الشرطة وعسكر الجيش فى صد غارات وهمية مرعبة داخل سماء لا يسودها إلا الضباب.

لقد استوردنا من الغرب كل هياكل الدولة. وماذا كانت النتيجة؟ لقد دعمت البرجليين، وأمدتهم بإقطاعيات وممالك طوائف صغيرة تعيش فى تناحرات الأمة! إن البرجلة مجال لإفراز شيوخ دون حصر وورثة ينتظرون - فى وكالاتهم ونياباتهم وتبعياتهم للمشايخ - النضج والقدم. ونشأت تقاليد انقلابية: التابع يعرف أسرار الشيخ فيشاركه المشيخة أو يقصيه ويقود. إن النظام غير المحكوم لا أخلاقى بالضرورة فرغم تمسكه بأسلوب الوراثة والنقل إلا أن الولاء للكبير انعدم فيه فازداد مفعول قانون الغاب (٤٩).

إن البرجلة ضد كل مفهوم لدولة عصرية أو لحياة ديمقراطية فقد غدت مصدر رزق عدد غفير من الأميين، وسر بقاء عناصر طفيلية لا حصر لها تنمو نمو السرطان ومع نموها تنمو ثرواتها. إن مفهوم الأمية قد اتسع مداه فى مجتمعاتنا، فصار لدينا الأمية الصغرى وهى التى يتمتع بها السواد الأعظم وهى عدم معرفة القراءة والكتابة، والأمية الكبرى وهى الأمية الثقافية والعملية، حيث يحتل كل منصب أو عمل أكثر الجاهلين به، وقد أطلق فى مصر يوما شعار «الرجل المناسب فى المكان المناسب» وعلق عليه الناس بشعار ما يحدث فى الواقع «المِناسب فى المكان المُناسب».

إن البرجلة تستثمر نظام قيم الوراثة لخلق سند لوجودها فيصح المتن الزائف. وهكذا يشرف على مصير الأمة ومقدرات الناس عناصر عجيبة أمية تؤمن بالوراثة والنقل كقيم مطلقة منفصمة عن الواقع، وهكذا تجد وزيرا للثقافة لا يجيد قراءة خطبة كتبت له، ووزير إعلام يديره صحفى مغمور، ووزير صحة لم يتمكن قط من إدارة عيادته الخاصة إدارة جيدة. فكيف يواجه هؤلاء ما يطرحه عليهم موقعهم من تساؤلات؟ تحضرنى قصة تروى عن رجل وصف عند الحجاج بالجهل وكانت له إليه حاجة، فقال فى نفسه لأختبرنه. ثم قال له حين دخل عليه «أعصامى أنت أم عظامى؟» (هل وصلت لما أنت فيه بجهدك أم بنبالة نسبك؟) فقال الرجل: أنا عصامى وعظامى فقال الحجاج: هذا أعظم الناس. ومكث عنده مدة ثم فاتشه فوجده أجهل الناس. فقال

له: تصدقنى أو أقتلك. قال له: قل ما بدا لك وأصدقك. قال كيف أجبتنى بما أجبت لما سألتك عما سألتك؟ قال له: والله لم أعلم أعصامى خير أم عظامى فخشيت أن أقول أحدهما فأخطىء فقلت أقول كليهما. فإن ضرنى أحدهما نفعنى الآخر.

إن البرجليين يواجهون الأمور بأسلوب الرجل مع الحجاج فيبدون عباقرة لوهلة يجعلونها من كراماتهم التى تسمح لهم بممارسة أجهل القرارات طوال الحياة! لكن أخطر ما فى البرجلة هى تنبه البرجليين لنيل شىء من القداسة عبر توظيف نظام قيم الوراثة وعبر استخدام أساطين النقل فى خدمتهم وتذويق جهلهم.

وليس البرجليون والبرجلة من الأمور القاصرة على الخلق المتربعين على قمة الهرم بل إن البرجلة من عناصر الارتجال الأصيلة التى تسود نمط الارتجال عندما صار محافظًا، ويترتب عليها فى حياتنا العامة من المساوئ الرائعة ما يذهل. فمثلما أجاب الرجل الجاهل أمام الحجاج «عين فى الجنة وعين فى النار» واختار الجنة والنار معا فيما يشبه سرعة البديهة تتسم البرجلة بسرعة البديهة المزيفة.

ولهذا يسود القص العربى منذ ألف ليلة وليلة وحتى الأجيال التالية لنجيب محفوظ قصص الحب من أول نظرة من طراز «نظر إليها فملأت قلبه بألف غصة وسقط مغشيا عليه». ولا يتوقف الأمر عند القص بل هو فى القص بعكس حقيقة لاحظتها فى الواقع بشكل مطرد مما يقيم علاقات حب أو زواج غير ناضجة ومكتوب عليها الفشل. وكلها من طراز الحب من أول نظرة.

والحب من أول نظرة أحد تجليات سرعة إصدار الأحكام وعدم القدرة على الرجوع عنها مع معاناة آثار ذلك. ولا يتم ذلك فحسب على مستوى العلاقات الاجتماعية بل على كل مستويات العمل الاجتماعى والاقتصادى والسياسى والعسكرى.

إن نمط الارتجال المحافظ يؤدى على المستوى النفسى إلى انفصام الشخصية وازدواجها والهروب من الذات فيصبح العيش بوجهين وفى ظل حياتين: واحدة سرية وأخرى علنية هو الأسلوب الشائع للحياة ويصبح الكذب والنفاق والخيانة ونقض العهد وتحول الولاء بعدد مرات الوجبات اليومية أهم المعالم الأخلاقية الواقعية لمجتمع يدعو ليل نهار إلى الصدق والاستقامة والأمانة والوفاء. إننا نحترم كل المجرمين البارعين فى إخفاء جرائمهم - وكلنا ذلك الرجل - تحت ستار من القيم الموروثة ذات البريق الدينى والأخلاقى بينما نجلد ونرجم كل من لم ينجح فى ذلك. إن كل من يرتكبون الفضيلة - بمفهومها الأخلاقى - بشكل مطرد فى السر والعلن لا يفعلون ذلك إلا لعجزهم عن ممارسة الجريمة وإخفائها إما بسبب مكانتهم الاجتماعية المنحطة (وراثيًا) أو ضعف فى شخصيتهم يورثه نمط الارتجال اسمه الخوف.

إن الخوف لدى البشر حالة عقلية أصيلة تمثل أهم العناصر البنائية لتركيبتهم العقلية. والخوف يولد عدم الثقة فى النفس وفى الغير سواء كان قريبا أو بعيدا. كما أنه يخلف شخصيات استسلامية سهلة

الخضوع لكل سلطة تتسلط عليها ويشيع شعار الاستسلام تحت مسميات دينية وأخلاقية مثل شعار الصبر الذى يفقد الإنسان كل قدراته الإيجابية فى انتظار انتصار قوى غيبية له «اصبر على جار السوء ليموت ليرحل». ومثل إعلاء قيمة الظلم «الظالم سيفى أقتص به ثم أقتص منه». فما دام الظالم سيف الله فكيف لمخلوق أن يتعرض له! إن الخضوع له خضوع لله وهو من حسن حظ المرء «يابخت اللى بات مغلوب ولا باتشى غالب» ويصبح الفهم الخاطئ لقول الرسول الأمين «اللهم أحينى مسكينا وأمتنى مسكينًا واحشرنى فى زمرة المساكين» دعوة للاستسلامية وليس انتصارا للمسكين، ومن ثم يختفى قوله (أو على الأقل يفقد تأثيره الحقيقى): «المؤمن القوى خير.. من المؤمن الضعيف» فهو فحسب دعوة للمتطرفين لامتشاق سيف العنف والإرهاب.

والخائف يفقد كل وعى بحقيقة الأشياء ويفتقد القدرة على المغامرة والإبداع، ويتسلط على من تحته ويهاب من فوقه ويستعين على قضاء حاجاته بالحيلة التى أطلق عليها التراث الشعبى اسم «الكيد» كما أنه لا يعرف فى التعبير سوى أسلوب اللف والدوران ويعجز عن الوصول عبر الخط المستقيم الأقصر إلى أهدافه، ولهذا فإن «كيد النسا غلب كيد الرجال»[٥٠]. بسبب زيادة نسبة الخوف عند المرأة. فهى فى ظل قيم الوراثة مثل فئران التجارب يتم تطبيق أكثر أساليب الارتجال وقيمه عليها دون رحمة بل هى مما يورث حتى أنها تعد رمزا للملكية الخاصة المطلقة التى تقوم أساسا على مبدأ الوراثة.

## (٦)

# ( أ ) الخلفية الفلسفية

# لنمط الارتجال العربى

سألوا أعرابيا: أين ناقتك؟ أجاب: تركتها ترعى الغيث.

إن هذا الشاهد اللغوى يلخص أسلوب حياة هذه الأمة ورؤيتها للعالم. إنها تحول كل ما هوى أرضى «العشب» إلى سماوى «الغيث». والعكس صحيح!

وبالتالى يتحول النمط السائد للحياة (الارتجال) إلى نمط مقدس محروس بالقوى السماوية. لقد تحولت منظومة القيم والعادات والتقاليد فى أرجاء عالمنا إلى جزء من الدين. وفى الجانب الآخر تحول الدين إلى جزء من منظومة القيم والعادات والتقاليد فاختلط الحابل بالنابل وصار الدين دولة كما أصبحت الدولة دينا.

ولما كانت قيمة الوراثة والشفوية أهم قيمتين عند العرب فى ارتباط وثيق بينهما تحت نمط «الارتجال» فقد اكتسبا قداسة على مر تاريخنا لا نكاد نعى بخطورتهما بل نحن لا نعى بوجودهما لفرط ما صارا مألوفين مثل الهواء لا نحس بوجوده إلا عند هبوب الرياح. وأصبح فصل الدين عن الدولة أو حتى فصل الدولة عن الدين من رابع

المستحيلات. وقد عاش بعض العرب حلم العلمانية فترة من الزمان وهم غارقون فى اللاهوتية وأيضًا يعيش بعضهم حكم اللاهوتية وهم غارقون فى العلمانية، وفى الحالتين ليس الأمر أكثر من جدل بين الواقع وبين تركيبة عقلية ارتجالية أعطت كل عناصر القداسة للارتجال كما أنها ارتجلت كل ما هو مقدس. وهو جدل ذاتى يخلو من قوانين الوعى بطبيعة الواقع أو بطبيعة تركيبتنا العقلية.

ولعل العلاقة القائمة بين الفقه وبين اللغة العربية تعكس ذلك الجدل فى تجلياته المختلفة بين أزواج: الدين والدولة، منظومة القيم والعادات والتقاليد والشعائر الدينية، الإنسان الكون، الكون والله، الإنسان والله، الموت والحياة، الفلاح والأرض، والعامل وصاحب العمل، الشعب والحاكم، الزوج والزوجة، الأب والأبناء، الأم والأبناء، الفرد والمجتمع... إلخ.

لقد صارت اللغة العربية لغة القرآن كما صار إعجاز القرآن (ومعه فكرة المعجزة والرسول) لغويا [٥١] ومن ثم فقد أخذت اللغة العربية فى أصولها الأولى قداسة جعلت كل كلام بعدها لحنا لا يعتد به واشتقت من تلك الأصول الأولى قواعد النحو وقوانين اللغة وتم فرض هذه القواعد والقوانين حتى اليوم متجاهلين كل قوانين التطور اللغوى الذى ينبع من تطور الواقع كما تم تجاهل كل التغيرات التى أصابت اللغة انعكاسا لتجاهلنا المسرف لكل التغيرات التاريخية لنا وللعالم. وهكذا تعجز عن مواجهة مشكلة الأمية فى ظل رغبتنا فى

تعليم الناس المعاصرين لغة عربية غريبة عليهم تماما ويوازى ذلك عجزنا عن مواجهة كل مشكلاتنا. إن الإقليمية والقومية اليوم صورة للهجات حية يتم تجاهلها لصالح لغة لم تعد تحيا إلا فى الكتب وقاعات الدرس[٥٢].

وقد تم اشتقاق القواعد والقوانين بناء على السماع والقياس والإجماع. وهذه النقاط الثلاث تنسلخ على الرجال حتى القرن الثانى للهجرة وربما أوائل الثالث، وعلى من يأتى بعد ذلك أن يخضع لكل النتائج التى توصل إليها السامعون والقائسون والمجمعون من هؤلاء الرجال. وهذا يعنى سماوية وقداسة النتائج بل ومن توصل إليها. وتصبح كل الدراسات بعد ذلك اجترارا ومحاكاة وتصنيفا تجميعيا لما سبق تصنيفه وتجميعه ألف مرة.

ويأخذ الفقه نفس الأسلوب: النص (وهو ما لم يكن قرآنيا سيصير أثرا شفويا) مقابل السماع فى النحو ثم يأخذ بالقياس والإجماع دون مخالفة لما تم مع اللغة. وهكذا انفصلت القاعدة عن مصدرها ومنبع وجودها، وهو اللغة، كما يلاحظ ذلك ابن خلدون فى إبداع عند حديثه عن علم النحو.

ولاشك أننا لا نتجاهل العنصر الرابع الذى ظهر فى النحو والفقه على حد سواء وهو عنصر العقل أو الاجتهاد بالرأى. فوجود هذا العنصر يشير إلى نمط ثانوى متنح بجانب النمط الرئيسى السائد. إنه نمط تحكيم العقل الذى يزدهر فى البصرة وبين فرق المتكلمين

والفلاسفة وبعض عناصر الأمة. ولكن تأخيرنا ذكر هذا العنصر الرابع «العقل - الاجتهاد بالرأى» رغم عظمة إنجازاته - يرجع لتنحيه عند مرحلة معينة واضطهاده بشكل قلل من آثاره وأوقفه عن ممارسة نشاطه بشكل مبكر استمر حتى اليوم. فنحن أمام نمط مواز لم يكتب له الانتصار إلا على مستوى إنجازاته الفردية التى تناثرت عبر التاريخ ولم تصل إلى تغيير الأمة.

إن الفقه حاول «أرضنة» السماوى كما أن علم النحو حاول «سمونة» اللغة. وهذه دائرة لم تنفك عن الدوران فالفقه الذى «أرضن» السماوى تمَّت «سمونته» فصار مقدسا بإقفال باب الاجتهاد وتعطيل العقل. واللغة التى تمت «سمونتها» تلى ذلك «أرضنتها» بفرضها على الواقع فى تجاهل لكل متغيراته التى لا يمكن إدراكها إلا بإعمال العقل الذى سدت فى وجهه طرق العمل فيما يتعلق بالدراسات اللغوية.

والخلط بين ما هو سماوى وما هو أرضى يدعم البرجلة تدعيمًا شديدًا ويقضى على أى موضوعية فى النظر إلى الأشياء ويسقط قيمة العلم الذى يفصل بين الأشياء بقصد الدراسة ثم يكتشف علاقاتها وديناميية عملها.

ويظهر هذا الخلط - كما لاحظ عدد من المستشرقين - فى اللغة عندما تقول فلان أصبح أو أمسى أو أيمن ومصّر وشرق وغرب، إن إصباح الإنسان وإمسائه هو خلط بين المصبح وظاهرة الإصباح

المستقلة عنه فى الوجود وأيضًا بين ظاهرة الإمساء وبينه كأنما يدخل المصبح والممسى فى الصباح والمساء وكلاهما يدخل فيه. ومثل ذلك أيمن ومصّر وشرق وغرب إشارة إلى أن دخول اليمن أو مصر أو الشرق أو الغرب هو انتماء المكان للداخل فيه مثل انتماء هذا الداخل له. إنه تحويل لكل ما هو موضوعى إلى ذاتى وتحويل كل ما هو ذاتى إلى موضوعى فتتحول الذات ومعها الموضوع إلى سراب لا يمكن الإمساك به.

وهذا ينطبق على كل العلاقات ولا سيما علاقة الفرد بالمجتمع فالمجتمع يهدر ذاتية الفرد ويمحوها والفرد يهدر كل القيم الاجتماعية ويدمرها وكل من الفرد والمجتمع يندمج فى الآخر ويأخذ صورته فلا يتماسك المجتمع ولا ينتمى الفرد ولا تتحدد الحقوق والواجبات فى صورة عقد اجتماعى.

وهذا الخلط بين السماوى والأرضى يفقد الإنسان الرؤية الواضحة والإحساس بالاستقرار حيث يعيش فى عالم سحرى من صنع الخيال لا يستطيع بل لا يقبل أن يرى شيئًا ملموسا فكل الصور ذاتية وكل بناء يهدم وكل ما يهدم يبنى ليهدم ليبنى فى دائرة من المهد إلى اللحد ويصبح الوجود حركة مستمرة فى اتجاه الغيب الذى خرجت منه. إننا فى حال سفر مستمر نخرج فيه من أنفسنا فى تسلسل لا ينتهى.

ويتضح ذلك فى شكل دقيق فى كتابات المتصوفة التى عبرت عن جماع الرؤية الشعبية للعالم، فابن عربى فى فتوحاته يتحدث عن هذا

الوجود المختلط للأرضى والسماوى ذاكرا أنه لافراغ على الإطلاق وأن الفواصل بين الأشياء من فعل الخيال وأن كل الصور تسير فى تيار مستمر تنهدم فيه وتنبنى من جديد ومع كل هدم وبناء تتغير الصور ويحدث التجلى الإلهى الذى لا يتكرر قط فالوجود خيال يخفى وراءه الحقائق فهو ظاهر لباطن يصير ظاهرا عندما يكون ظاهره باطنه ولكننا لا نرى ذلك خلال السكون والتحدد والوهمى للأشياء .

وما رآه ابن عربى فى فتوحاته المكية يقدمه الغزالى فى التبر المسبوك فى نصيحة الملوك فى تعليقه على حديث يقول «احذروا الدنيا فإنها أسحر من هاروت وماروت» .

يقول الغزالى «وأول سحرها : تريك أنها ساكنة عندك مستقرة معك . وإذا تأملتها خلتها ساكنة وهى هاربة منك نافرة عنك على الدوام ، دائما تتسلسل على التدريج ذرة ذرة ونفسًا نفسًا .

ومثل الدنيا كمثل الظل إذا رأيته حسبته ساكنا وهو يمر دائمًا فكذلك عمر الإنسان يمر بالتدريج على الدوام وينقص كل لحظة وكذلك الدنيا تودعك وتهرب منك وأنت غافل لا تَخْبر وذاهل لا تشعر . . . وأحوالها أمر يتسلسل منه مائة أمر . وينفق فيه بضاعة العمر . . . إن مثال الدنيا كطريق المسافر أوله المهد وآخره اللحد وفيما بينهما منازل معدودة وإن كل سنة كمنزل وكل شهر كفرسخ وكل يوم كميل وكل نفس كخطوة ، وهو يسير دائمًا ، فيبقى لواحد فرسخ ولآخر أقل وهو قاعد ذاهل وساكن غافل كأنه مقيم لا يبرح وقاطن لا

ينزح». إن الإنسان يسافر دائمًا نحو السماء مشدودا ومتجها نحو الأرض. وكذلك كل الصور والأشياء. إن الأشياء لا تكاد تتحدد حتى تفقد حدودها بحدود جديدة فى سفر عبر الزمان الذى يسافر فيه.

إن هذه الرؤية للعالم تدعم تماما نمط الارتجال وتعطيه جذورا وفروعا لا تقف عن النمو والازدهار محافظًا على ثبات التركيبة العقلية ومحاولا فى ظلها تثبيت الواقع فى مجتمع لا يؤمن بالثبات وبالتحدد. ولهذا تصبح كل القيم والمبادئ والتصورات ضبابية غير واضحة ولكنها ثابتة المنبع تسافر فى الزمان حاملة معها الماضى ليحكم المستقبل، وسفر الزمان هو ما يعبر عنه ابن عربى فى فتوحاته عن نقطة الآن التى هى الحاضر تحمل فى إهابها الماضى ويتحرك دائمًا نحو المستقبل فلا وجود إلا للآن. وهذا معناه ببساطة استمرارية الماضى فى حركة نحو المستقبل.

ولهذا يصير الماضى أصلا لكل شيء وحاكما لحركة الحياة التى تحولت إلى رموز لغوية، وذلك عندما استخدم الفعل الماضى أساسا للاشتقاق اللغوى وجذرا لوجود غيره من الكلمات. ويتم هذا بديلا عن المصدر الذى يعد أصل الاشتقاق فى كل اللغات.

إن دلالة استخدام الفعل الماضى بجانب أنه يمثل سيطرة الماضى على اللغة وما تعكسه من واقع وما تعبر عنه من رؤية لهذا الواقع. فإنه يمثل فكرة انفراط الصور وتبدد الحدود لأن استخدام فعل كجذر لكل شيء يدل على الحركة المتلاشية وعدم الاستقرار لأن الفعل فى النهاية

حدث فى زمن. وأكثر من ذلك فإن الفعل الماضى المستخدم هو تصريف الفعل مع الشخص الثالث المفرد الغائب «هو» . و«هو» فى رأى ابن عربى جماع الأسماء الحسنى ويشير إلى عالم الغيب الذى منه خرجنا وإليه نعود. ويستخدم الفعل الماضى فى العربية ولا سيما عربية القرآن بمفهوم الاستمرارية منذ الأزل وإلى الأبد(٥٣) وأيضًا فى المعاجم من معانى «الماضى» النافذ المستمر فى الأداء، وهذه سلطات الماضى علينا فإن من لا شيخ له فشيخه الشيطان فلا معرفة إلا عبر الشيخ «الممثل للسلف الصالح» جسر الماضى إلينا. فكل جديد بدعة وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة فى النار لأن كل جديد من إيحاء الشيطان. وهكذا يتم الخلط بين الإبداع والبدعة مع أن البدعة هى إحداث شيء فى الأسس الكبرى للدين، وهى بهذا تفارق مفهوم الإبداع تماما. والسبب فى ذلك سيطرة عقلية الارتجال قبل الإسلامية على الدين فألبسته ثوب السلف الصالح (الماضى) كما ارتدت هى نفسها ثوب الدين (القداسة). فبعد رحيل الرسول الأكرم إلى الرفيق الأعلى بسنوات بدأ تيار فرض الوراثة على نظرية المعرفة فى الإسلام فقد صارت أقوال وأفعال الصحابة جزءًا من السنة ثم لحق بهم على استحياء التابعون وتابعوهم وتابعو تابعيهم إلى ما لا نهاية ثم انسلخت هذه النظرية على كل شيء ولا سيما نظام الحكم الذى ثبت فكرة الوراثة على ثلاث مراحل: المرحلة الأولى مرحلة جعل الخلافة فى قريش، وهذا لا معنى له على الإطلاق إلا وراثة النبى الذى قرر

أنه ومعشر الأنبياء لا يورثون، وقد رفض الحكم بعد النبى إعطاء فاطمة ميراثها فى تفسير خاطئ لمفهوم ألا يورث الأنبياء ليتفرد الآخرون بميراث النبوة والحكم معا. وكما تم نزع الحق من فاطمة تم نزعه من الأنصار وسائر العرب واحتكاره فى قريش الذين صاروا أمراء ومنوا الأنصار بوزارة لم ينالوها قط.

أما المرحلة الثانية فكانت داخل قريش بين اتجاه ضعيف الثروة والمقدرة وبين فريق شاسع الجاه والمقدرة. الفريق الضعيف هم بنو هاشم ممثلون فى نسل الرسول ونسبه (على وبنيه). وهذا مصدر قوتهم الوحيد وهو مصدر غير مقنع كان عليه أن ينهزم ويشكل من «شيعته» حزب معارضة يحلم بالحكم على المدى البعيد واستقر الأمر لسادة قريش فى الجاهلية (بنى أمية) وهؤلاء حولوا الحكم إلى ملكية قيصرية وراثية. وتنجح هذه المرحلة فى فرض نظام إمبراطورى وراثى بجانب تثبيت حق قريش فى الحكم فيلقون معارضة هامشية داخلية من بعض الجيوب الطامحة فى الحكم مثل الزبيريين اللذين يتوسلون بالحرم وبقرابة عبد الله بن الزبير لأم المؤمنين عائشة كسلم نحو النبوة الموروثة فى صورة الخلافة مع ظهور عنصر متطرف ضاق من ديكتاتورية قريش يدعو إلى لون من الديمقراطية ويتمثل فى الخوارج. كل ذلك بجانب المعارضة الهاشمية التى ستستعين بالعناصر غير العربية الأصل فى مقابل استعانة بنى أمية بالعناصر العربية التى استنفرها قميص عثمان الشهير وهيبة بنى أمية الموروثة وحنكتهم المنقولة عبر الأجيال فى لعبة القيادة والسياسة.

أخيرا المرحلة الثالثة وفيها يتم انتقال الميراث النبوى نهائيًا إلى بنى هاشم طبقًا لأحكام الوراثة فى الإسلام وقد مثلهم بنو العباس فى وصاية اقتنصوها على بنى على بن أبى طالب. وبعدها سيتداولون الأمر فيما بينهم بظهور الخلافة الفاطمية ونجاح بعض العناصر الشيعية فى السيطرة على جوانب من الإمبراطورية العباسية. وكون هؤلاء جميعا قد استعانوا بالعناصر الأجنبية أدى إلى ظهور العنصر التركى والمملوكى والسلجوقى على رأس دول إقليمية داخل الدولة العباسية ستنتهى بسيادة تركية كاملة فى القرن السادس عشر وتنتزع هذه السيادة بردة النبى من بنى العباس وتنقلها للآستانة بعد أن استقرت الوراثة لصاحب السيف فى ظل خلافة عباسية صورية سقطت وحدها كما تسقط أوراق أشجار الخريف، ورغم سقوطها فقد استفيد من قداسة النبوة التى ادعى وراثتها دما بنو العباس فى إهاب كل مغامر يدعى الخلافة أو ينقض على الحكم وكثر أمراء المؤمنين.

وما حدث فى الحكم أصاب كل جوانب الحياة وسيطرة نمط الارتجال على الوجود العربى شل الإبداع وأنشأ مبدأ التبعية للماضى وللغرب معا مذهبا فى الحياة سهل اليوم علينا أن نشركه فى الإتباع مع ماضينا فنحن بين غارق فى ركام الماضى أو غارق فى أضواء الغرب أو محاولا التوفيق بينهما دون جدوى ودون وعى بأن العلة الأولى وراء ذلك هى تركيبة عقلية ثابتة شكلها ارتجال امتشق سيف التدين وتدين امتشق سيف الارتجال وبرجلة تحرمنا من الرؤية وتملأ عيون وعينا

بظلام الماضى وعسف الأجنبى الدخيل ووقعنا فى فخ التخلف فعجزنا حتى عن ممارسة ديننا (سواء أكان الإسلام أو المسيحية التى تربت فى كنف الارتجال) ممارسة صحيحة معتدلة ولا زلنا نعيش كل مشاكل تاريخنا القديم دون حسم لها فى حاضر لا يحتمل تبعتها البائسة .

إن هذه الرؤية الارتجالية للعالم ستحدد رؤية أدبائنا للعالم وستدفعهم للتمسك بتقنية وأشكال للأدب منقولة من ماضينا أو من ماضى الغرب فى هذا العصر الحديث . وكما أننا نمتزج بالزمان والمكان سيمتزج الأديب بعمله وتغلب السيرة الذاتية على الرواية . والثقافة الشخصية على المسرح والبنى المستوردة على الشعر ، إن تاريخ أدبنا هو تاريخ أنماط . وفى ضوء هذا ينبغى أن ندرسه فى محاولة بالوعى بالذات .

## (ب) الخلفية الفلسفية لنمط الارتجال

كما رأينا الارتجال هو سلوك محافظ يكرر النمط ويقاوم التمرد عليه والتكرار يعتمد على الشفهية والنقل والبرجلة وكل هذا يؤدى بالضرورة إلى تثبيت قيمة الوراثة وهذه مع الارتجال تضفى قداسة على النمط وتلفه بشعارات دينية محولة كل ما هو سماوى إلى أرضى خلال رفع كل ما هو أرضى إلى السماء فتنداح الصور وتتداخل الرؤى ويسيطر الأرضى على التدين فيحتل ذلك الأرضى ما لا يستحق من قداسة ويسيطر التدين على ما هو أرضى فيغرق فاعليته وتتدهور قداسته.

والقداسة للأرضى تؤدى إلى الديمومة أو إطلاق الزمان فالقداسة غير خاضعة لمجرى الزمان لثباتها فى الزمان مهما تغير المكان.

وهكذا إذا اكتسب ما هو أرضى قداسة فإن تلك القداسة تنتج الديمومة الزمانية للنمط ويصبح كل ما هو جزئى مؤقت ومرتبط بمناسبات واقعية كليا ودائمًا ومطلقا وبذا يصير النمط مقدسا فى ديمومة.

والديمومة تلغى حركة الزمان التاريخى، أى تلغى التاريخ. وبالتالى تلغى افتراض انقسامه إلى ماض وحاضر ومستقبل، وتتحول حركة الزمان إلى حركة فى المكان مثل حركة بين الصوت (الماضى)

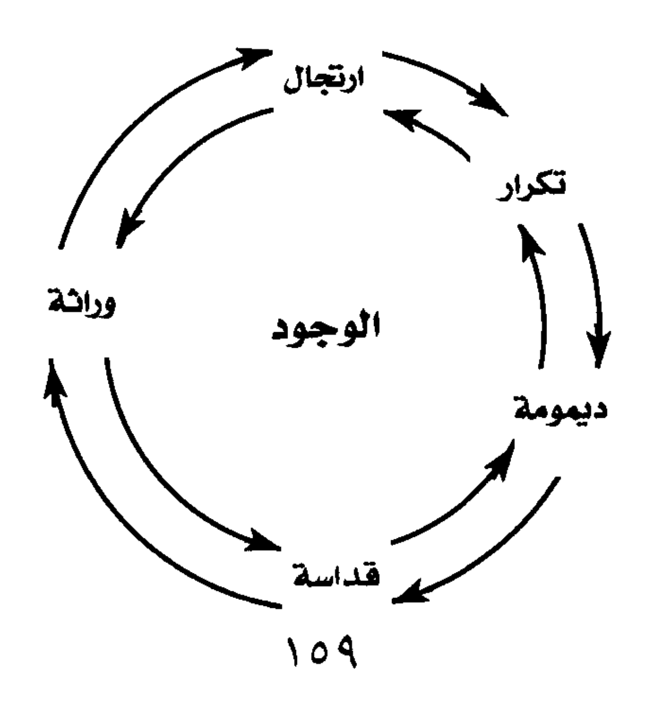
والصدى (تكرار الماضى) بين جدارين رنانين أو مثل صور شخص فى غرفة من المرايا . أى أن النمط يتوالد ويكرر نفسه أبدا .

فالديمومة تؤدى إلى التكرار ، وهذا يوقف إمكانية الابتكار ويخرج أصحابه من مجرى التاريخ إخراجا أساسيا بمعنى أن يصير وجودهم هامشيًا نافعا لغيرهم وليس فى صالحهم من شىء إذ يصيرون أداة مستهلكة فى خدمة من ينتج التاريخ ومن يصنع الاستراتيجية .

فالتكرار استهلاك للذات ولإنتاج الغير نظير ما يستهلك من الذات وأكبر مثل لذلك بيع المواد الخام (استهلاك للذات) نظير معدات وتكنولوجيا غالبا متخلفة أو بلا فائدة إنتاجية مثل السلاح (استهلاك لإنتاج الغير) . ويؤدى هذا إلى التآكل مثل القطعة المتحركة من الآلة تتآكل باستمرار نتيجة تكرار نفس الحركة .

والتكرار الناجم عن الديمومة يدفع إلى الارتجال (تكرار النمط) .

وهكذا يسير وجودنا فى دائرة مفرغة قاتلة :



وهذه الدائرة تدور فى اتجاهين متضادين فى نفس الوقت رابطة هذه العناصر الخمسة بمركز الدائرة بأنصاف أقطار تصب فى وجودنا بهذا المركز ونصب نحن فى تلك العناصر التى تربطها شبكة معقدة من العلاقات المفرزة لسلبيات ذلك الوجود اللانهائية.

فالارتجال بين الشفهية والنقل والبرجلة يحل الكلام محل الفعل والنص محل العقل والعفوية العشوائية محل التخطيط. أما الوارثة فإنها تجعل كل جيل نسخة باهتة من الجيل السابق له فالتلميذ صورة من أستاذه لا تكتمل قط فتتعرض الأمة للتآكل والتعرية والترسيب وكأنها قطعة من الطبيعة لا تدخل للإرادة فيها. فضلا عن أن شخصية الفرد (التلميذ) يتم سحقها ويصير مقموعًا قامعًا فى آن ويصبح ولاؤه للشيخ بدلا من الولاء للعقل والإرادة والمثل العليا.

وقد لاحظ ذلك المفكر المبدع زكى نجيب محمود فى حديثه المطول عربى بين ثقافتين المنشور فى جريدة الأهرام (مأزق حرج - حلقة ١٥) فى مجال المقارنة بين كلمة ايديال عند الغرب وكلمة المثل الأعلى عندنا. يقول «ولكن ما أهمية التفرقة بين قوم يجعلون المثل الأعلى فى مجال معين، فردا من الأفراد يتميز بالدرجة فى سلم التفاوت، وبين قوم آخرين يجعلونه فكرة عقلية مجردة يقاس إليها الأفراد بعدًا وقربًا؟ وجوابنا: أن الفرق آخر الأمر كبير حين يصبح الموقف موقف علاقات اجتماعية بين الناس وهم يتفاعلون بعضهم مع بعض. ففى الحالة الأولى (العرب) التى يكون المثل الأعلى فيها واقعًا ماديًا لا يتهم

أحـد بشطط أو إسـراف أو عنت ، إذا طلب كل النـاس فـردًا فـرداً أن يحيوا حياتهم على صورة مثلى ، لأن ما قد تحقق فى فرد واحد منهم لا يصبح مستحيلا عليه أن يحقق فى سائر الأفراد . وهذا المطلب هو بالفعل مدار الحكم الخلقى على الناس من وجهة النظر العربية . لكن حقيقة الإنسان أضعف من أن تمكن جميع أفراد المجتمع من أن يبلغوا ذروة استطاع بلوغها فرد واحد متميز ، ومن هنا ينشأ للمواطن العربى فى حياته العملية ذلك المأزق الحرج - الذى أشرنا إليه فى عنوان هذا الحديث- لأنه سيجد نفسه دائمًا أمام احتمالين : فإما هو قادر على تجسيد الذروة الخلقية فى سلوكه كما استطاع بلوغها مواطن مثالى معين . وإما يجد طبيعته أضعف من أن تسعفه فى ذلك المسعى . وهنا يغلب عليه التستر على ضعفه ذلك حتى لا يكون موضع ازدراء من مواطنيه ، فيلجأ إلى ازدواجية مأمونة العواقب فى حياة دنياه .

وذلك ، أن يتظاهر أمام الناس بما هو أفضل ، مما لا يقع تحت طائلة المؤاخذة الخلقية ويرجئ إشباع جوانب ضعفه إلى حين يحتمى وراء الجدران فلا تقع عليه الأبصار ، وفى مثل هذه الظروف التى تهيئ الفرصة لانتشار الازدواجية الخلقية يكون من المرجح أن يسود النفس عدم التسامح مع من لا يبرع فى ممارسة تلك الازدواجية على نحو محكم ، بحيث يجعل نفسه على مرأى من الناس ومسمع ، وقتما ينهزم أمام ضعفه فيبدو الناس على غير صورة الكمال الخلقى المنشود .

وأما فى الحالة الثانية، التى هى حالة أهل الغرب حين يقيسون سلوك الناس إلى فكرة عقلية تصور ما ينبغى أن يكون عليه الأمر من الناحية النظرية، فالمفهوم ضمنا فى هذه الحالة: أن النزول بتلك الصورة العقلية المجردة إلى الأرض لتتجسد فعلا فى سلوك الأفراد هو أمر محال على البشر، ومع ذلك فهو أمر مرغوب فيه أن تقام أمام الناس صورة مثلى لما ينبغى أن يكون. ليحاول الإنسان ما استطاع أن يقترب من الهدف. وبقدر اقترابه يكون مقدار فضيلته، وهو موقف تنتج عنه نتيجتان اجتماعيتان: الأولى هى أن نسبة الحكم الخلقى أكثر حفزا للأفراد على محاولة الصعود نحو الأكمل، دون أن يصيبه إحباط عند الفشل. والثانية هى أن أفراد المجتمع يصبحون أكثر تسامحًا بعضهم مع بعض فى الأحكام الخلقية. لأن الأمر عندهم ليس هو الصواب كل الصواب وإما الخطأ بل هو أن فعلا معينا أصوب من فعل آخر، وأن خطأ معينا أوغل فى (الخطأ) من خطأ آخر.

ولو أن أمثال تلك «النماذج» السلوكية الحادة فى معالمها وفواصلها قد نزل بها الوحى الدينى بكل هذا التحديد الجازم. أو ورد عنها حديث شريف، لوجب حقًا أن تكون ملزمة. أما إذا وجد بينها ما ليس ملزما للفرد المؤمن، كان من حقنا أن نسأل عن جدواها إذا كانت مجدية، أو عن ضررها إن كانت ضارة، ووجوه الضرر واضحة، وأهمها حرمان الفرد الإنسانى من حرية صياغته لسلوكه. كى يكون بحق مسؤولا أمام الله يوم الحساب، إذ لا فضل لإنسان يسلك على

نموذج أقيم له وحتى لو كان السلوك بمقتضاه سلوكا فاضلا، فالفضل الأول هنا لمن أقام النموذج وأوصى بالتحرك على منواله.

وليست هذه الحرية الضائعة هى كل ما يؤخذ على تقييد الحياة الفردية بنماذج موضوعة لم يرد فى أصول العقيدة ما يوجبها فقد نضيف إلى الحرية المفقودة وما تؤدى إليه من تحطيم للشخصية، أن تلك النماذج الموضوعة لا تلبث أن تتجدد وتتحجر فى صور يتناقلها جيل عن جيل، فتصبح معوقات للتغيير إذا ما استحدثت ظروف معاشية تقتضى ذلك التغيير، فضلا عما يمكن أن يحدث - بل وقد حدث بالفعل فى حياتنا وحياة غيرنا - أن تصبح تلك النماذج الموضوعة مقررات دراسية لبعض الدارسين، فتكتسى عندئذ غلالة «العلم» فتنال توقيرا ليس من حقها أن تناله، فنحن نعلم كم تضعف الحاسة النقدية عند الكثرة الغالبة من الناس، بل ومن الدارسين أنفسهم وحتى ليكفى أن ترد جملة معينة فى كتاب يدرسه الدارسون فى معاهد العلم، ليلقى فى روع المتلقى أن الذى بين يديه «علم» لا شبهة فيه، وتغيب التفرقة بين ما هو علم صحيح، وبين ما هو تاريخ يروى لنا أقوالا وردت فى كتاب أخرجه ذات يوم مجتهد له علينا فضل اجتهاده دون أن يكون علينا وجوب الحكم بصوابه.

وهنا أريد الوقوف، مع القارئ لحظة يسيرة. أذكره فيها بالخطوات التى خطوناها فيما قدمناه، حتى لا تفلت منه معالم الطريق، فقد كان السؤال الذى طرحناه باحثين له عن جواب، هو عن أسس الاختلاف

الذى نشعر بوجوده بين وجهة النظر العربية من جهة ووجهة النظر فى ثقافة الغرب من جهة أخرى، وذلك فى مجال «الأخلاق»، فأين تكمن مواضع ذلك الاختلاف؟ وذكرت للقارئ أن أحدنا - نحن الأصدقاء الثلاثة الذين أداروا فيما بينهم هذا السؤال - أقول إن أحدنا - وقد عرف بسرعة الرجوع إلى «اللغة» للاهتداء بمعانى مفرداتها فى الموضوع الذى يحدث له أن يكون مجالا للبحث، وكثيرا جداً ما وجد أن تعقب تلك المفردات اللغوية إلى جذور معانيها يكشف عما يمكن أن يفسر المشكلة المطروحة، فاقترح على زميليه أن ينصب التحليل والمقارنة على ما يطلق عليه العربى اسم «المثال» (بمعنى المثل الأعلى) فى مقابل ما يطلق عليه ربيب ثقافة الغرب اسم، «ايديال» فمجرد المقارنة بين أصول هاتين الكلمتين سيلقى من الضوء ما يهدى.

«فالمثال» عند العربى يشير إلى شىء واقع يتصف بدرجة من الكمال أعلى مما نجده فى الأمثلة الفردية التى تقع مع ذلك المثال فى نوع واحد، والمادة اللغوية فى «مثل» وكل ما يشتق منها، تشير إلى ما هو مجسد من الأشياء التى تقع بالفعل فى دنيا الأحداث، وأما كلمة «ايديال» فمأخوذة من أصل معناه «فكرة». إذن فبينما يجعل العربى مرجعه فى الحكم الخلقى على «نموذج» من نماذج الواقع الفعلى. يجعل ابن الغرب مرجعه فكرة مجردة قوامها جملة مبادئ نظرية، واستدللنا من هذا الفارق بينهما فى مرجع الحكم، أن العربى أكثر تقيدا من زميله، على ألا ننسى أن العربى كزميله يؤمن بالصورة

العـقليـة المؤلفـة من بادئ الكمـال المطلق، لكنه يضـيف إليـهـا تلك النماذج من صور الحياة البشرية كما تقع، وأبدينا للقارئ ما نشعر به إزاء تلك النمـاذج الموضـوعـة، إذا لم تكن ملزمـة بحكـم ورودها فى أصول العقيدة الدينية أى عندما تكون صياغة بشرية، فعندئذ رأينا أنها قد تضيف قيودا على حرية الفرد فى صياغة سلوكه بنفسه ليكون مسؤولا . وإنها قد يتقادم عليها العهد فتكتسب فى نفوس الناس قوة ملزمة دون أن يكون ذلك من حقها.

وخلاصة الفرق بيننا وبين أهل الغرب - فيما يبدو لنا - من حيث الرؤية الأخـلاقيـة، هو أنه برغم اتفـاقنا على إقـامة تصـور لمجمـوعة منسقة موحدة للقيم العليا المطلقة، أى التى تصل فيها كل قيمة من تلك القـيم إلى مـا لا نهـاية له من الكمـال، فـصـدق مطلق، وإرادة مطلقة، ورحمة مطلقة، وقدرة مطلقة، وعلم مطلق. . . إلخ، كلها يجتمع معًا فى صورة موحدة، لتصبح أمامنا غاية الغايات، نسعى إلى الارتفاع إليها بما نفكر وما نريد وما نسلك ودون أن نطمع فى بلوغها، وإلا طمعنا فى أن نبلغ مرتبه إلهية، وسبحان الله الذى لا إله إلا هو، أقول إننا فى نظرتنا العربية، وأهل الغرب فى نظرتهم، على اتفاق فى الإيمان بوجود الصورة العليا غاية يقاس إليها الفعل الإنسانى اقترابا منها أو ابتعادا عنها فتكون الحالة الأولى توجها نحو الفضيلة يحمد عليه الإنسان، وتكون الحالة الثانية مجافاة للفضيلة يهبط بها الإنسان نحو الرذيلة وقد أسلفنا لك القول بأن مثل هذا الموقف من شأنه أن

يؤدى إلى شىء من المرونة فى الأحكام الخلقيـــة على النفس، لأن قياس عـمل محدد معين إلى فكرة مجـردة مطلقة لا يبين لنا الحدود واضحة وحاسمة وفاصلة.

ولا كـذلك نظرة العـربى، لأنه يضـيف إلى إيمانه بتلك الصـورة اللانهائية المطلقة، صورة مما يمكن أن يحياه الإنسان فى حياته العملية، فتكون هى المعيار الذى يحاسب الفرد على اساسه فيما يفعل أو ما يمتنع عن فعله، ومن شاء أن يعرف - بالنسبة إلى المسلم - كيف يكون للإنسان فى كل مـواقف الحياة العلمية «نموذج» يجب أن يسلك على غراره، فليقرأ كتاب «إحياء علوم الدين» لأبى حامد الغزالى. إذن فـهذه المجـموعة الكبرى من نماذج السلوك الصحيح هى التى تقام معيارا للحكم على الأفعال أهى مقبولة أم مرفوضة مرذولة، ولا أظن أن تحليلنا لحياة أهل الغرب يمكن أن يؤدى بنا إلى نماذج حاسمة الحدود تفـرض على الفـرد من الناس ليحتـذيها فى سلوكه وإلا حكم عليـه بالفساد والضلال. ولسنا هنا فى مقام التقويم والمفاضلة. ، لنقول أى الرؤيتين فى عالم الأخلاق أصوب من الأخرى، بل نحاول مجـرد الوصف الموضوعى لما هنالك مما تختلف به نظرة هنا عن نظرة هناك.

ثم نمضى - بعـد هذه المراجعـة - فنستـأنف السيـر فى حـديثنا، فنقول: إن المخاطر التى تنجم للعربى فى حياته، عما قد تقرر له بأنه، مثل عليا، دون أن يكون لتلك المثل العليا حق الإلزام، لكنهـا كـانت فى أصل نشأتـها من صنع أفراد من رجال الفكر يتعرضون للخطأ كـما

يتعرضون للصواب : إنما هى مخاطر بعيدة الأثر ، حتى لقد تنتهى بنا إلى شلل فى جرأة التفكير وخفة الحركة ، فيمضى موكب الحضارة قدما ونحن وقوف مسمرة أقدامنا إلى الأرض ، مغلولة عقولنا إلى «مثل عليا» لا هى «مثل» ولا هى «عليا» .

ألا إنه لمأزق حرج محير مربك خطير ، ذلك الذى ينشأ الفتى العربى فى حبائله ، فلا يدرى كيف يجد سبيله من تلك الحبائل ليخرج إلى ما قد خلق ليمرح فيه ، من أرض فسيحة تحت قدميه ، وسماء مفتوحة فوق رأسه . ويقول لنا «الفتى العربى» نشير إلى أبناء هذا الوطن الصحراوى الفسيح ، الممتد من الخليج إلى المحيط ، عبر عصور التاريخ ومنذ فجر التاريخ ، ولقد اختار التاريخ أرض مصر ليطلع فيها بفجره ، وكان ذلك الفجر مقرونا فى حياة الإنسانية بفجر آخر هو «فجر الضمير» ولا عجب أن جعل عالم المصريات الفذ ، والمؤرخ العظيم ، «بريستد» عبارة «فجر الضمير» عنوانا على كتاب له فى تاريخ البدايات الأولى للتاريخ المصرى ، وما يصدق على المصرى هنا يصدق كذلك على سائر أجزاء الوطن العربى بعد ذلك ، وأعنى ما قد أراده رب العالمين لابن هذا الإقليم المبارك ، من أن يكون أول بشر يضع محكمته الأخلاقية فى قلبه ، فأينما كان وحيثما سار ، كان ميزان الحكم الخلقى منصوبا بين جوانحه يميز به الخير من الشر ، والهدى من الضلال ، وإنه لضمير جعل مبدأه فى السلوك أن يتفاعل الفرد مع سائر الأفراد على نحو يجاوز بالبصر حدود هذه الحياة الدنيا ، أملا فى

أن يجيء ذلك السلوك مرضيا لمالك يوم الدين إذا قامت الساعة وجاءت ساعة الحساب.

إن «الفتى العربى» قد أريد له - إذا ما ترك على سجية إقليمه أرضًا منبسطة إلى آفاق بعد آفاق - وسماء طلقة حتى آخر أجواز الفضاء، أقول: إن ذلك الفتى العربى لو ترك لسجيته وسجية وطنه لما عرف فى حياته العملية إلا ضابطا واحدا. هو ما انضبط به بوحى من رب العالمين، وإنك لتسمع الفلاح المصرى والعامل المصرى، وهما فى أبسط صورة لهما يرددان عبارة «إنى أعامل ربى» كلما جرى بينه وبين مواطن تعامل فى بيع أو شراء أو صناعة أو كيفما كان.

لكن هذه الصورة الفطرية البسيطة لم تترك على بساطة فطرتها، بل أضيفت إليها القيود قيدا فوق قيد: فهنالك حاكم وحكومة ظهرا فى الساحة يتطلبان من الشعوب سيادة لهما على الناس، قبل أن يتعهدا لتلك الشعوب بخدمتها فى أمانة وشرف، إذن فقد بات حتما على المواطن البسيط كلما أراد أن يميز خطأ الفعل من صوابه أن يحسب حساب الحاكم والحكومة. إلى جانب ميزان الضمير، ولم يكن ذلك هو القيد الوحيد الذى غلت به الأرجل والأذرع كما غل اللسان، بل فرض على الفرد قيد آخر لعله أبشع وأقسى وهو «الرأى العام» الذى ترسبت فى خلايا جسمه الكبير، وعلى مدى الأعوام والقرون - رواسب مما بث فى تلك الخلايا من مزاعم عن الحق والباطل. والصحيح والفاسد، حتى أصبح لذلك «الرأى العام» فى

كل شعب على حدة وفى مجموعة الأمة مزاج خاص فيما يغضبه وما يرضيه، والويل لمن أقام ميزانًا ضميره ليكون فيصلا بين ما يقبل وما يرفض من فكر أو معتقد أو سلوك دون أن يبدأ بأحكام الرأى العام فى كفة الميزان التى يراد لها الرجحان.

لم يعد الأمر - إذا - فى حياتنا العملية مرهونا بضمير حر يوجه صاحبه نحو ما يقال أو ما يعمل، إرضاء لرب العالمين خلال إرضاء ذلك الضمير، بل هنالك حاكم وحكومة، وهنالك رأى عام ضاغط، فضلا عما هنالك من طبيعة الإنسان الحيوانية من غرائز، وانفعالات وعواطف، ورغبات وشهوات، كلها يلح على حاملها يريد إشباعا وإرضاء، فماذا تتوقع من الإنسان الذى ألهمت نفسه فجورها كما ألهمت تقواها، إزاء الصراع العنيف الذى لا بد له أن يستعر فى جوفه بين تلك العوامل الكثيرة المتعارضة، ماذا تتوقع منه إلا أن ينجو من الناس فرد بقوته وصلابته. وأن يسقط حوله تسعة وتسعون فردا خارت فيهم القوة ولانت الصلابة؟ وكيف يجىء ذلك السقوط؟ إنه قلما يجىء فى شجاعة الصراحة والعلانية وإنما الأغلب الأعم أن يجىء فى جبن الخائف المتستر بضعفه وراء الجدران، فإذا كان له رأى يخالف ما يريده الحاكم والحكومة وما ينصره الرأى العام قاله لخلصائه همسا خلف أبواب مغلقة. وإذا كانت به رغبة تدفعه إليها غريزة أو عاطفة، سافر ليشبعها خارج الحدود، أو بحث عن حجب يتخفى فى ظلماتها والويل لمن لا يتقن هذه اللعبة الاجتماعية ويجيدها.

ولو اقتصرت تلك اللعبة الاجتماعية على حياة الناس الخاصة لهان خطبها، ولكنها تتعدى هذا المجال الخاص إلى المجال الثقافى العام فإذا كنت كاتبا، وجب أن تكتب مما فى ذات نفسك شيئًا وتخفى شيئًا. وإذا ترجمت لحياة بطل من أبطالنا. وجب أن تصوره ملكا من الملائكة المطهرين لا يعرف الضعف أو الخطأ إليه سبيلا. فكل ما فيه قوة من قوة وصواب فوق صواب، بل إنك إذا ترجمت لحياة نفسك، أبى عليك الرأى العام إلا أن تعلن الحسنات وتخفى السيئات. حتى لو كانت لك الشجاعة النادرة التى تميل بك نحو تقديم صورتك على حقيقتها قوة وضعفًا.

فى مثل هذا المأزق ينشأ الفتى العربى، فلا يجد أمامه خيارًا - فى علاقاته مع الآخرين - إلا أن يفرض فيهم السوء إلى أن يثبت له عكس ذلك، فلا يأتمن أحد منا أحدا، ولا يصدق أحد منا أحدا، إلا بعد خبرة يطمئن بها على نفسه، فنكثر فينا الضمانات، وتتعقد العلاقات، وتزداد الخصومات، مع أننا إذا ما تركنا على سجايانا الفطرية، لبدأنا بالحب قبل الكراهية، وبالأمن قبل الخوف، وبالتعاون قبل التنافر، لكننا أضفنا إلى النقاء غبارا. وإلى الصفاء عكرا، فوقعت حياتنا فى مأزق حرج مخيف».

وملاحظة زكى نجيب محمود تضرب فى أعماق موضوعنا، ويصبح تطبيقا بديعا لما أوردناه من مقارنة بين العقل العربى (الجنوب صحراوى)، والعقل الغربى (الشمال غرب أوربى) فالمثل الأعلى

(النموذج المطلق) الذى يتخذ دائمًا صورة أفراد متفوقين تفوقا يصلهم بالكمال كما تصورهم عقلية الارتجال الجنوب صحراوية ليس إلا الشيخ أو المعلم أو الأستاذ أو الأكبر سنا أو السلف الصالح ( وكل السلف صالح وصلاحه مطلق وغير قابل للنقد) واتخاذ المثل الأعلى بهذه الصورة هو تكريس لعناصر الوراثة والنقل ثم هو تحويل للنموذج إلى صورة عقلية تنحفر فى الذاكرة لتقود كل أنماط السلوك الظاهرة فى اتجاه كمالها المزعوم فى الوقت الذى تتم فى السر أنماط أخرى للسلوك الخفى فى اتجاه مضاد للاتجاه السابق، وبين العلن والسر تتمزق الشخصية وتفقد هويتها وتهدر حياتها فى تكلف سلوك ظاهر مفروض وتحمل أعباء إجراءات حلزونية ويائسة لإطلاق قنابل من الدخان وخلق جو من التمويه للانطلاق دون رابط فى إسراف مبالغ فيه فى سلوك يناقض السلوك الظاهر.

هذه الصورة العقلية المحفورة فى الذاكرة تحل محل الكلمة والفكرة والذات نفسها فى تفردها (كما يراها العقل الشمال غرب أوربى) وتصير - هكذا - جماع المصدر المعرفى عند حاملها الذى يستلهمها فى سلوكه استلهاما يجهد الذاكرة الفردية التى أخذت صورتها من الذاكرة الجماعية الممجدة لتلك الصورة عن طريق التلقين والحفظ تلقيا من الشفاه أو من كتاب ينبغى حفظه ليصير متاحا لنشره بعد ذلك شفاهة. الأمر الذى يجعل من الأمية أمرا مقبولا ويكفى أن

يعرف القراءة أحد المشايخ كى يحفظ ما جاء بالكتب ثم يذيعه شفاهة فيصير ناقلا للمعرفة . وهكذا فالناقل والمنقول إليه يشتركان فى تلقى المعرفة دون إنتاجها حتى صار تأليف الكتب ولا سيما فى أعلى بيئاتنا المعرفية فى الجامعات ليس إلا تجميعا ونقلا عن عشرات المصادر و المراجع ، أى أن التأليف نقل عن النماذج لإذاعتها وتكريسها وليس عملا خلاقا يعبر عن فكر مؤلفه أو اكتشافاته وإبداعاته وإضافاته .

والفرد النموذج جعل جمهرة الشعراء تذوب فى نماذج مختارة (أبو نواس - أبو تمام - البحترى - المتنبى . . إلخ) وهذه النماذج المختارة تدور فى فلك نماذج جاهلية . وهذا ما دفع الأدباء العرب فى أوائل هذا القرن أن يختاروا أحمد شوقى أميرا للشعراء . أى النموذج الأعلى الذ ى يحاكيه الجميع ويدورون فى فلكه . إن هذا يفتح أمامنا سبيلا لتأريخ الأدب فى ظل النماذج العليا . كما أنه يفسر لنا غيبة المدارس الأدبية المتميزة بعمق وتشابه الجميع .

إن الفرق بين البحترى وأبى تمام فرق فى النوع وليس فى الدرجة .

وكل ما سبق يؤدى إلى ديمومة البنى والأساليب ، وإلى محدودية التغييرات وضآلة مجالات التمرد عبر العصور . إن أدبنا حتى منتصف هذا القرن الراحل يبدو وكأنه قطعة واحدة مكررة آلاف المرات . ألا يدفعنا ذلك إلى تأمل ما بدأنا به هذا الكتاب عن بنية العقل العربى ،

وأصـوله الصـحـراوية الجنوبيـة، ومـا أصـابه عـبـر زمـانه العـريق من تحولات دفعت بنا اليوم إلى موقف بالغ الحزن والتخاذل. إن الوعى بذلك هو بدايةالطريق لتغيير المشهد الغارب بغد أفضل يحمل البهجة والأمان والإشراق.

(٧)

## البنية العقلية لنمط
## الارتجال العربى بين التاريخين

للعربى تاريخان تاريخ منسى مكبوت وتاريخ معروف يعيش فى ذاكرته الحية. جذوره القديمة انقطعت فى الظاهر لتتفرع وتتكاثر متعفنة فى عقله الباطن، وهذه الجذور فى انقطاعها المزيف وامتدادها الحقيقى الخفى تمثل قوة قمعية معذبة تملأ حياة العربى بسياط يجلد بها نفسه ويمزق بضرباتها بشرته فى صورة وشم أو حناء بظاهر يده وباطنها. إن عيش هذا التاريخ الغائب فى باطن العقل يتحول إلى ديناصور بالغ الوحشية يناضل من أجل البقاء ويصيب بنية العقل بتعقيدات مبالغ فى انتشارها وتسلطها على البنية الظاهرة. وتتكون هذه القوة القمعية من منظومة من المعتقدات والأفكار التى تفرض أنماطا روحية ومادية فى السلوك الذى يحاول فى نضاله من أجل البقاء أن يختفى داخل ثياب بنى الثقافة المعاصرة. وكما يهبط هذا التاريخ فى قاع العقل تهبط هذه الأنماط من السلوك فى قاع تلك الثقافة. إن كثيرا من ممارساتنا الدينية سواء أكانت مسيحية أو إسلامية لا علاقة لها بالمسيحية أو الإسلام وإنما هى شعائر مكبوتة اختفت فى باطن رداء الدين المعاصر. إن الاحتفال بأربعين يوما أو مد احتفال الزواج حتى اليوم الأربعين هو

عودة إلى شعائر ضاربة فى القدم داخل الحضارة المصرية القديمة وربما الحضـارات التى نشـأت فى أطراف العـالـم العـربى . هذه الظواهر الأربعينية ما ينطبق عليها يفسر أيضًا ظواهر احتفالية خاصة بالسابوع . ونفس الشىء حول صليب الكنيسة القبطية فهو صورة معدلة من رسم كلمة الحياة الهيروغليفية ذلك الرسم الذى يطلق عليه العامة مفتاح الحياة، وعموما فإن التوسع اللانهائى لمفهوم الدين حتى يسيطر على كل شئون الدنيا، مما يجعل الموت وما يصاحبه من أحزان أهم عناصر الحياة. إن السيدة العربية تقف فى مطبخها تعمل وهى تبكى وتعدد مستعرضة شريط الذكريات مع موتاها .

إننا نكره الفرح ونخشاه ونتشاءم من انطلاقنا فى الضحك فنتوقف فجأة فى ذهول مذعور «خير! اللهم اجعله خير!» .

إننا من أكثر الأمم تطيرا وخوفا من المجهول الذى يعيش فى عقولنا، السيدة تمشط شعرها ثم تجمع ما تساقط منه وتدفنه كما تدفن ميتا ونفس الشىء مع أظافرها . إنها تخشى أن يسطو أحد على ملابسها حتى لا ينال منها «أثرا» يكون أساسا لتدبير «عمل» ضدها . والرجال دون النساء يهنئون بعضهم بعضا داخل الجبانة . إن هذا المجهول المرعب يملأحياتنا كلها بالخوف من كل شىء فنحاول البحث عن الحماية فى ظل الدين أو المذهب أو الطائفة أو العرق على مستوييه الأسرى والقبلى والعرقى إن أمكن .

كل فرد داخل المجتمع المفكك يحاول حماية نفسه من عدو محتمل

فيصير عدوانيا ضد الآخرين حاملا لأحقاد تجعل الثأر أسلوبا للتعامل بدلا من التسامح الذى دعا إليه كل من الإسلام والمسيحية . كلنا أدوات تعذيب تتبادل المواقع بين جلاد وضحية .

إن إيماننا بالعفاريت والجن وظهور الأشباح مع الخوف من الظلام يعد أحد المظاهر لذلك المجهول المكبوت بداخلنا ولطالما سبب عفاريت الموتى الذين توفوا فى حوادث أو بالقتل كوارث لا تحصى فى القرية التى نشأت فيها . إن ست لازال يعيش بداخلنا يقطع جثة أخيه أو يحبسها فى تابوت كما أنه يعيش مليئًا بالرعب من عودة هذا الأخ «أوزوريس» للحياة .

محاولة فهم منظومة القيم والأفكار والمعتقدات المكبوتة داخل العقل العربى بسبب هذا التاريخ المنسى تحتاج لدراسة عميقة وموسعة لكل مظاهر حياتنا لنكتشف طبيعة علاقتنا بكل من الشمس والقمر فى مجدهما الإلهى بجانب شعب من الآلهة الصغيرة مثل النجوم والأحجار والأنهار والأشجار والحيوانات وغيرها من مظاهر الطبيعة سواء فى انفرادها أو تركبها فلا زال مكبوتا بداخلنا أعداد لا تحصى من نمط أبى الهول الذى يتشكل جسمه من صورة كائن قد ركبت له رأس كائن آخر .

هذا التاريخ المنسى الكامن مشوها ومكبوتا فى عقولنا يتحول إلى البعد الثالث الغائب فى فننا العربى فى مرحلته الإسلامية . وهو التصميم الفانتازى للعمارة الإسلامية بحدائقها وأمواهها وتجريدها

الذى يحاول أن يصور الجنة على الأرض كتعويض لتلك النار التى يخلقها لنا كبت تاريخ طويل وإجباره على البقاء داخل الدهاليز المظلمة والمغلقة فى عقلنا. إن حلم الجنة فوق الأرض ليس إلا المعادل الموضوعى لذلك الماضى الطويل الذى يعذبنا فى محاولة يائسة لإجبارنا على تذكره. ولهذا تأتى اللغة العربية وريثة لكل لغات ذلك الماضى ومتخذة من الفعل الماضى الثلاثى (مثل أضلاع كل وجه من وجوه الهرم) جذرا للاشتقاق وأصلا لكل الكلام وديمومة فى زمن الحدث.

واللغة كما يقولون مخزن للثقافة وانعكاس للفكر ومنها يتم تشخيص الوجه المظلم الخفى للعقل، ذلك الوجه الذى يمثل الطبقة الأعمق فى البنية الجيولوجية الترسيبية العمودية للعقل العربى.

هذه البنية لا زالت فاعلة فى حشد كبير من دقائق الحياة اليومية. وفعلها له جوانب إيجابية بجانب جوانبها السلبية. وأهم جوانبها الإيجابية تكوين شخصية مميزة للعربى تجعله غير قابل للانصهار والضياع أمام موجات الغزو المتتالية التى استهدف لها. إنها الجذور العميقة الضاربة فى أرضه فتجعل كيانه يصبغ غيره من الغزاة بلونه ولا يفقد لونه من فرط ما حاولوا صياغته بلونهم. إن كثيرا من الشعوب فقدت وجودها المستقل والمتميز أمام موجات الغزو وانتهت باكتساب لغات جديدة وسلوك مختلف، والتحول إلى شخصية مائعة تتوسط بين وجودها القديم ووجود غازيها الحديث الذى أعطاها من ذاته ولغته

ودينه ما يجعلها تدور فى فلكه إلى الأبد، دون أن تنتمى إليه انتماء كاملا أو تنتمى لنفسها انتماء ظاهرا. أما العربى فقد تمسك بلغته التى أورثها كل لغاته الماضية وبدينه الذى أنتجه باختيار الله لأنبيائه من عنصره، وإنزال وحيه على أرضه سواء كان هذا الدين إسلاما أو مسيحية. وأخيرا بمنظومة القيم التى تشكل رؤيته للعالم. إن محاولات الفرنسيين المبالغ فيها لاستلاب شخصية الجزائرى ولغته ودينه باءت بفشل لا يقل دويا عن حجم هذه المحاولات ومثلها محاولات العثمانيين من قبل تحت ستار الانتماء المشترك للإسلام.

لقد نجح العثمانيون فترة من الزمان فى تجميد اللغة العربية ونفيها من الواقع الرسمى لتنفجر هذه اللغة من جديد فى حيوية مذهلة على يد أناس من أصول عثمانية غير عربية ولكنهم تم تعريبهم واستيعابهم وتحويلهم إلى عناصر عربية أصيلة وأذكر منهم البارودى وأحمد شوقى وليس معنى ذلك أن هذه النهضة لم تتم إلا على يد هذه العناصر التركية الأصل وإنما تمت على يد حشد من العقول العربية التى ضمت فيما ضمت هذه العناصر التى جاءت لاستيعاب ما هو عربى فانقلب الوضع وصارت عربية فخورة بعروبتها، كذلك لا يمكن أن نرجع هذا الانفجار اللغوى للعناصر الإسلامية العربية التى شاركت أيضًا فى انفجار دينى أعاد للإسلام حيويته منذ رفاعة الطهطاوى ومحمد عبده وإنما نرجعه لكل العناصر العربية مهما كان دينها فكيف ننكر دور جبران خليل جبران ومطران وشبل شميل وسلامة موسى وجورجى زيدان.

فالشخصية العربية تكوين عقلى كونى متميز يتجاوز الدين والعنصرية الجنسية إلى وجود إنسانى رفيع القيم شديد الإيمان بالله مهما تعددت السبل إليه. وهذه الشخصية التى برزت على ساحة الحضارة العالمية الوسيطة بفضل الإسلام لم تفقد قط اتصالها بمنجزات بروزها الحضارى القيم بفضل اتساع أفق الإسلام وقدرته على تقبل كل وجود مغاير له لا يرفع فى وجهه راية الاضطهاد العقيدى.

ولهذا فإن هذا التاريخ المنسى فى حاجة للاعتراف به ووصله بتاريخنا الإسلامى وكشف وجوده فى حاضرنا حتى يتم لنا الوعى ببنية عقلنا فى أعمق طبقاتها الجيولوجية العمودية التكوين. ولعل مثالا واحدا يكشف لنا أساليب هذه العملية التى يجب أن نبدأ فى أدائها فورا لوصل التاريخ المنسى والوعى بوجوده فى حاضرنا، إجراء دراسة لنبات ا لحناء ودوره فى حياتنا القديمة والوسيطة والمعاصرة منذ استخدامه فى التحنيط وحتى ليلة الحنا فى شعائر الزفاف المعاصرة. إن دور هذا النبات اليوم يبدو وكأنه فى انقراض مع تشبث المرأة فى مناطق متناثرة من عالمنا العربى بتخليد الحيوية والشباب فى شعرها بصبغه بالحناء أو تخليد نعومة بشرة يديها وقدميها وإضافة جمال إليهما عن طريق نقش نقوش سحرية عليهما تظهر معالم خطوط مخفية وكأنه الغيب ينكشف فى قراءة موقعة تضج بها اليد والقدم مثلما تضجان بالخلخال والأساور الفضية والذهبية التى تعودت على ارتدائها منذ آلاف السنين، وبالتالى فالمعاناة والأحزان والتعذيب التى

تسفر عنها هذه القوة المكبوتة وجه لعملة تخفى شيئًا من البهجة والجمال والخلود المنشود على وجهها الآخر.

هذا العقل بين التاريخ المكبوت والتاريخ المعترف به تزدوج شخصيته ويرتجل حياته غارقا فى بارانويا المكبوتين كما يرتجل التعبير عن هذه الحياة فى أدبه بنفس الأسلوب محاولا التسامى على كوابيس الكبت ونوازع العنف فيها لإخفاء عصاب البارانويا، إن تاريخ الأدب ينبغى أن يفرج فورا عن آدابنا القديمة. ويكشف عن آثارها فى أدبنا العربى فى ماضيه و حاضره. فهذه الآداب القديمة لم تكف عن التأثير عبر الانتقال الشفاهى وعبر تشكيل نمط الارتجال لعقلنا وسلوكنا.

# الهوامش والمراجع

(١) سراج الملوك ص ٩٣ - ٩٤ .

(٢) سراج الملوك ص ٩٩ .

(٣) نيكولاس بولانتزاس، نظرية الدولة (ترجمة : ميشيل كيلو) . دار التنوير للطباعة والنشر . ط ١ بيروت، ١٩٨٧ ، ثم ل . م هارتمان (وآخر) الدولة الإمبراطورية فى العصور الوسطى (ترجمة : جوزيف نسيم يوسف)، دار النهضة العربية، بيروت ١٩٨١ ، لتحديد مفهوم الدولة العائم من نظرية أرسطو فى الدولة وحتى هذا القرن . ونحن نركز على انفصال السلطة عن الدولة والعكس، فهناك دول ممزقة تتعدد فيها السلطة، وهناك دول مزيفة تتحد فيها السلطة (آخر مثل لها الاتحاد السوفيتى ويوغوسلافيا) . ومن ثم فنحن نرى دولة عربية واحدة ممزقة السلطة .

(٤) راجع : ج .ج . كولتون عالم العصور الوسطى فى النظم والحضارة (ترجمة : جوزيف نسيم يوسف) . دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٨١ ، لمعرفة حضارة العصور الوسطى، لكننا نضرب مثلا معاصرا بإطار الحضارة الغربية الذى كاد يستوعب حضارات أقدم ويحولها عن مسارها مثل الحضارة اليابانية .

(٥) مفهوم الثورة والمحافظة والمقاومة عن تصورنا الخاص، ولهذا فإن قارئ هذا البحث عليه ألا يخلط هذه المفاهيم بغيرها مما شاع فى هذا العصر واضطرب معناه .

(٦) بدأ هذا التطور فى جسم الدولة الإسلامية اعتبارا من العصر العباسى الثانى واستمر حتى اليوم ما عدا استثناءات بين الحين والحين وعلى مستويات فردية .

راجع : صفى الدين الحلى، العاطل الحالى والمرخص الغالى (تحقيق : حسين نصار)، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة ١٩٨١ ، لاحظ اختراع الزجل والموشح فالمؤلف يقول عن الزجل : ومخترعوه أهل المغرب ثم تداوله الناس بعدهم (ص ١٥) . . ويتحدث عن الموشح المكفر . . ثم تداوله العامة ومن لا أنس له بالقواعد . . . وما لأحد منهم فى وزنه وقافيته ما يستغفر منه بل على طريق العبث، وذلك خطأ (ص٨)، لنعرف كيف يفسد الأصل فى النسخ، وكيف يفقد النمط المكرر وظيفة الأصل المبدع، كذلك راجع : ابن سناء الملك، دار الطراز (تحقيق : جودة الركابى)١٩٤٩ ، لنرى تخلف النمط عن الأصل : «وبعد فإن الموشحات

مما ترك الأول للآخر وسبق بها المتأخر المتقدم» (ص ٧) . ونضرب مثلا للنمط ونزوله عن الأصل ما حدث للمقامات بعد مخترعها بديع الزمان الهمذانى .

(٧) ضربنا هذا المثل لنكشف عن امتداد فكرة النمط لتشمل كل جوانب الحياة من ناحية ، ولشيوعها إلى حد الطغيان فى المجتمعات الزراعية القديمة مثل مصر والشام والعراق فى عالمنا العربى والهند مثلا فى آسيا .

(٨) إن النكتة المصرية (فى شىء من المبالغة تجاوزت بها شكل الظاهرة عند شعوب أخرى) تقوم على تصور ثابت لنمط «الصعيدى/ الفلاح . البندراوى» .

(٩) راجع ديوان زهير بن أبى سلمى ثم المتنبى ثم أحمد شوقى . واستعرض أشعار الحكمة لترى نمطًا ثابتًا للقيم يفقدها معناها ويدخلها فى جو من التعميم . ثم تكاد تتطابق مسميات هذه القيم عند الشعراء الثلاثة مع اختلاف العصور . ونظير الحكمة عند الشعراء الأمثال .

(١٠) يراجع استعمال كلمة «ملك» فى ألف ليلة وليلة ، وهى ترادف تصور الناس الآن لكلمة (حاكم/ عاهل/ رئيس / أمير/ سلطان . . . إلخ) . ومن الغريب أن تصور هؤلاء الحكام لأنفسهم لا يختلف عن ذلك فالحكام العرب يحلو لهم أن يسبق اسمهم لقب الوالد والأب والزعيم ورب الأسرة والشيخ . . إلخ .

(١١) لم يحظ أى بلد عربى بأى نظام ديمقراطى عبر التاريخ مثل الأنظمة التى حدثت بأثينا أو روما فيما قبل العصر الوسيط ، وهذا معناه أن فهمنا للديمقراطية زائف وغير ناجح ، وزراعة هذا النظام لن تنجح إلا بالوعى أولا بالحاكم النمط ، ثم محاولة تغييره .

(١٢) أذكر القارئ ما لاقاه الشعر الجديد من مقاومة حادة بقيت آثارها حتى اليوم فى استمرار الشعر العمودى فى البقاء ، ثم ، فى تنكر معظم خصائص الشعر العمودى داخل الشعر الجديد المعاصر . كذلك أذكر القارئ بالهجوم القاسى الذى تعرض له طه حسين حين ألف كتاب «فى الشعر الجاهلى» بل إن ثأر النمط – فى حضارتنا – ضد الجديد لا ينمحى عبر العصور ، فما زلنا نصادر كتبًا تراثية (كانت فى عصرها ثورة ، وصارت نمطا غير مقبول جملة) مثل كتاب الفتوحات المكية لابن عربى وألف ليلة وليلة .

(١٣) إننا نعيش هذا العصر الذى أدخلنا فى نمط يضم زمرة كبيرة من دول العالم ولاعتناقنا هذا التصور صرنا نعتز بهذا الانتماء بشكل ما ، فهو العذر لكل سلوك غير تقدمى نسلكه . إنه المبرر لكل الجرائم التى نرتكبها فى حق أنفسنا ومستقبلنا .

(١٤) الأدب كمدخل لدراسة التاريخ كانت المدخل الوحيد لفهم تاريخ أسبانيا راجع :
1- Américo Castro, la realidad Histórica de Espana, Qainta edicion, Editorial Porrua, Mexico. 1973.
(وهو طبعة مجددة من : Espana en Su Historia المنشور ١٩٤٨).
2- C-S Albomoz Espana Enigma Historico, 2 Tomos Editorial Sudamericana, Buenos Aires 1955.
وآثار المعركة التى دارت بينهما فى :
1 - Arangaren y otros, Estudios Sobre la obra de Américo Castro, Taurus Madrid, 1971.
2 - C.S Albornoz, El Islam de Espana y El Occidente, Espasa - Calpe, Madrid, 1974.
ثم فى آخر طبعات عمل أميريكو كاسترو حيث غير بعض آرائه.
بل إن الأعمال الأدبية فى حد ذاتها تمثل التاريخ المفقود فالشعر الجاهلى يؤرخ للعصر الجاهلى وهو الآن أفضل المصادر لذلك، ثم إن نجيب محفوظ يقدم لنا القاهرة المفقودة فى كتب المؤرخين وبعض القصائد والمواويل الشعبية تحكى قصصًا أهملها التاريخ مثل موال أدهم الشرقاوى.
(١٥) أضرب مثلا بإخضاع الحداثة فى العصر العباسى لعدد من الأنماط : المجون، الزندقة، الشعوبية، الزهد، المدح... إلخ. فى العصر الحديث : الإحياء، الرومانسية/ الواقعية/ الحداثة.
ولعله من المدهش حقا أن الميدان النحوى يخلو من أى دراسة للواقع اللغوى فى تطوره منذ ١٢ قرنا وحتى الآن حيث اكتفى بفرض ما توصل إليه الخليل وسيبويه وتلاميذهما من الجيل الأول من كوكتيل عجيب لقواعد «سلطة» لهجات اللغة العربية «على مستويات استعمال محددة بدائرة الشعر والنصوص الدينية دون غيرها» على كل الأجيال المتكلمة باللغة العربية حتى الآن.
(١٦) لعل للقدماء بعض العذر، فقد كانوا فى حالة استجابة لعصورهم، وكثير من أعمالهم إبداعية ونضرب مثلا بالجهود الفذة فى دراسة إعجاز القرآن واللغة.
(١٧) لعل أفضل تصور للحضارة العربية هو التصور الذى ساقه ابن خلدون (مع شىء من التعديل). فهى حضارة فى داخلها دورات يتم فيها الصراع بين الحضارة والبداوة

فى دورات تبدأ بالبداوة وتنتهى إليها (راجع مقدمة ابن خلدون). وابن خلدون يشير أيضًا إلى دورات كبرى للحضارة. راجع (عالم العصور الوسطى فى النظم والحضارة). لنرى عناصر الاشتراك والاختلاف بين عصورنا الوسطى والعصور الوسطى الأوربية.

(١٨) راجع: سليمان العطار، الحداثة العباسية فى قرطبة، دار الثقافة، القاهرة ١٩٩١ (الفصل الثالث).

(١٩) إن أحداث أوروبا الشرقية والاتحاد السوفيتى أصابت أنصار المادية التاريخية من دارسى الأدب والمثقفين بدهشة وحيرة جعلتهم يدركون نمطية دراستهم، وهم لا يعرفون الآن كيفية الخروج من النمط، لأنهم تلقوا النمط من «أنبياء!» قد ثبت فشل نبوتهم وزيفها. ومن الملفت للنظر أنهم لا يختلفون عن نظائرهم ممن استمدوا مناهج أوربية أخرى، ولكن هؤلاء لم يدركوا حتى الآن أنهم واقعون فى نمط آخر ساقط. لا أدعو بغلق الأبواب أمام المعرفة الأوربية فهى أبواب العصر لا جدال ولكنى أدعو بتطوير هذه المعرفة والانتقاء من مجالها الواسع لتزرع فى واقعنا. إن تنميط ما نأخذه من الغرب كرّس التبعية حتى أن إضافاتنا للعلوم الإنسانية والاجتماعية اليوم منعدمة بل ونفس الشىء فى الإبداع فمبدعونا يلجأون للأشكال الأدبية التى صارت أنماطا عفا عليها الزمان فى الغرب، ويطلقونها فى الأوساط الأدبية على أنها «أحدث صيحة». وهذه العبارة الأخيرة لم يعد لها معنى فى معجم تعبيراتنا الجاهزة.

(٢٠) لا تدرس الآداب المصرية القديمة والآشورية والبابلية فى الجامعات العربية. إن أدبنا يبدأ بالعصر الجاهلى. كما أن لغاتنا القديمة لم تحظ إلا باهتمام الأوربيين. إننا ندرس الإغريقية واللاتينية والتركية والعبرية ونتجاهل مثلا اللغة الهيروغليفية والديموطيقية والقبطية (ما عدا استثناءات مثلما يحدث فى كلية الآثار وهو اسم سياحى لهذه الكلية) واللغات السامية مثل السريانية.

(٢١) راجع ما كتبه ايمانويل سيمون فليكوفسكى فى عمله المشهور «عصور فى فوضى»، كما ورد فى (مقال: سيد محمود القمنى) فى الكتاب الدورى: قضايا وشهادات عدد ٤ خريف ١٩٩١ ص ٣٩٤ - ٤٣٧.

(٢٢) نقصد بصناعية أنها مصنوعة أو مصطنعة.

(٢٣) راجع: مجلة كلمات ١٣/ ١٩٩٠ ما كتبناه حول أزمة الكويت بعنوان: «كلمة عند المنزلة بين المنزلتين» ص ٤٤ - ٤٧.

والمثل للقنابل الزمنية : لبنان - السودان ، التهديدات الطائفية أوالعرقية فى الخليج والمغرب ومصر .

(٢٤) راجع هامش ٢٠ .

(٢٥) إننا مثلا لن نفهم كثيرا من عاداتنا المصرية على سبيل المثال دون العودة للتاريخ الفرعونى فمثلا احتفالنا بالأربعين (بل واحتفال العرب به حيث تمتلئ المصادر العربية بما يثبت وجود مثل هذا الاحتفال فى العصر الجاهلى كاحتفال القبيلة بظهور شاعر)، واعتناء السيدة المصرية برسم الشمس على «كعك عيد الفطر»، وإلقاء السنة المخلوعة فى اتجاه الشمس، والاحتفال بسبوع الطفل واستخدام الشبة بعد إشعالها وثقب عين التمثال الناجم عن احتراقها لمقاومة الحسد، ودفن الأظافر والشعر . . . إلخ . كذلك لن نفهم أسطورة العنقاء، وعلاقتها بالشمس دون العودة لنفس التاريخ . إن أسطورة إيزيس أوزوريس، ملحمة جلجامش لهما وجود قوى فى السير العربية الشعبية . ونحن لم نفعل أى جهد لدراسة ذلك (باستثناء حالات فردية مثل جهد لويس عوض وأحمد شمس الدين الحجاجى) .

(٢٦) راجع الهامش السابق .

(٢٧) ليس هذا هجوما على الاستشراق، ولكنه تقرير لحقيقة موضوعية، فهم درسوا تاريخنا وأدبنا ولغاتنا، من أجل خدمة مصالح أممهم وتاريخهم وأدبهم ولغاتهم فى المقام الأول ثم من أجل سهولة السيطرة علينا فى المقام الثانى، فنشأة الاستشراق لا تختلف عن نشأة الانثروبولوجى، وأخيرا فعلوا ذلك من أجل العلم، لكن العلم ليس شيئًا مطلقا بل أداة لخدمة الإنسان، وفى هذه الحالة الإنسان الغربى خاصة!

(٢٨) راجع المقدمة (ابن خلدون) من الفصل السادس والثلاثين حتى الفصل الواحد والأربعين .

راجع ب . ت . غريغوريان ، الفلسفة وفلسفة التاريخ (ترجمة : هيثم طه) دار الفارابى، بيروت ١٩٨٦ . لمعرفة الدور الأوروبى فى فهم التاريخ والوعى به منذ عصر النهضة وحتى اليوم، ودورنا يقف عند ابن خلدون حتى اليوم . أيضًا راجع : د . رأفت غنيمى الشيخ، فلسفة التاريخ . دار الثقافة، القاهرة ١٩٩١ .

(٢٩) راجع مقالنا «عصر الرجال الأطفال» فى هذا الكتاب .

(٣٠) أفضل نماذج نظام العصور لدراسة تاريخ الأدب العربى هى سلسلة تاريخ الأدب

العربى لشوقى ضيف المنشورة فى دار المعارف وتشمل تاريخ الأدب منذ العصر الجاهلى وحتى العصر الحديث. وهذه السلسلة هى العمدة الآن فى تاريخ الأدب العربى.

(٣١) من المفيد الإشارة إلى أن المؤرخين القدماء كان لديهم الوعى باتصال التاريخ فكل كتب التاريخ الكبرى العربية كانت تؤرخ للعالم لكن كان ينقصها الوثائق فاعتمدت على روايات شفوية مليئة بالأسطورة والخلل فى تقدير السنوات والعصور والأسماء والأحداث فمثلا تاريخ الطبرى (تاريخ الرسل والملوك)، يفتتح تاريخه «القول فى الزمان.. ثم القول فى ابتداء الخلق ما أوله» ومثله ابن الأثير والمسعودى وابن كثير وابن خلدون. إنهم يقدمون تاريخًا متصلا للعالم وللعرب.

(٣٢) راجع علاقة البنى الفوقية بالبنى التحتية: د. الطاهر لبيب، سوسيولوجية الثقافة. معهد البحوث والدراسات العربية، ١٩٧٨.

(٣٣) راجع المقدمة: عبد الرحمن بن خلدون، المقدمة، مؤسسة الأهلى للمطبوعات، بيروت (بدون تاريخ) ص ١٢١، ١٤٩، ١٥١، ٤٠٤. فى كل هذه المواضع يتحدث عن العرب بمفهوم البدو. وهو مفهوم لازال سائدًا فى قرى مصر حتى الآن.

(٣٤) راجع: لطفى عبدالوهاب يحيى، العرب فى العصور القديمة، دار النهضة العربية، بيروت ١٩٧٨ ظهر اسم العرب فى ملحمة الأوديسة المنسوبة لهوميروس، ثم ظهرت فى كتابات هيرودوت، ثم استرابون ثم بلينيوس (يمتد هؤلاء من القرن السادس حتى الأول الميلادى) انظر ص ١٩٦ - ٢١٢. كذلك ظهر العرب فى التوراة بنفس مفهوم ابن خلدون أما سكان الأمصار فكان يطلق عليهم أهل (كذا) نسبة إلى مدينتهم أو بلدهم (ص ١٨٣).

(٣٥) يحدد هيرودوت هذا الامتداد (الخليج حتى شرق وادى النيل) حين إشارته للعرب (نفسه ص ١٩٩ - ١٩٧). أيضا نصائح عمر فهى فى كتب السيرة والتاريخ.

(٣٦) أشار القرآن الكريم إلى رحلة الشتاء والصيف، وهما رحلتان للتجارة وقد اشترك الرسول ﷺ فى ذلك عندما قام بإدارة تجارة السيدة الشريفة أم المؤمنين خديجة.

* فى سيرة سيف بن ذى يزن يطلق على أرض مصر (مصر الأمصار) والمصريون يطلقون على القاهرة (مصر).

(٣٧) راجع السيرة الشعبية (قصة سيف بن ذى يزن).

(٣٨) راجع : اغناطيوس غويدى، محاضرات فى تاريخ اليمن والجزيرة العربية قبل الإسلام (ترجمة: إبراهيم السامرائى). دار الحداثة، بيروت، ١٩٨٦ ص ٢٢ - ٤١ . كذلك راجع مملكة كندة ص ٤١ - ٤٤ .

(٣٩) موسوعة تاريخ الفن والعمارة (د. عفيف بهنس، الفن والاستشراق، المجلد الثالث) دار الرائد اللبنانى، بيروت ١٩٨٣، راجع المقدمة ص ٥ - ٢٢ .

(٤٠) راجع معلقة زهير بن أبى سلمى فى شروح المعلقات، بما فيها شرحنا لها (دار الثقافة، القاهرة ١٩٨٢). وقد بدأت فكرة الأحلاف مبكرة - فيما يحكى الطبرى (ج١ ص ٦١٢ وما بعدها) - بقرنين أو أكثر قبل الميلاد «فاجتمع بالبحرين جماعة من قبائل العرب، فتحالفوا على التنوخ - وهو المقام - وتعاقدوا على التوازر والتناصر، فصاروا يدا على الناس، وضمهم اسم تنوخ، فكانوا بذلك الاسم كأنهم عمارة من العمائر. وكان اجتماع من اجتمع من قبائل العرب وتحالفهم وتعاقدهم أزمان ملوك الطوائف الذين ملكهم الإسكندر. . . (وللخلاف بين ملوك الطوائف). . . تطلعت أنفس من كان بالبحرين من العرب إلى ريف العراق، وطمعوا فى غلبة الأعاجم على ما يلى بلاد العرب منه أو مشاركتهم فيه، واهتبلوا ما وقع بين ملوك الطوائف (حكام فارس) من الاختلاف. . ابن جرير الطبرى، تاريخ الرسل والملوك ص ٦ تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة، ١٩٩٠ .

(٤١) نمط الارتجال يتحول إلى قوة فى وجود مشروع محدد للمستقبل ويستنفد قوته عندما يشعر أنه أنجز المشروع دون أن يظهر فى الأفق مشروع جديد، وهنا يبدأ ما بنى من حضارة فى الانهيار، وتبدأ سلبياته تعمل ماحية كل قدرات الابتداع والاختراع التى يفجرها الالتفاف حول المشروع.

وقد فقد العرب مشروعهم بقفل باب الاجتهاد فى الفقه، وترتب على ذلك وقف باب الاجتهاد تدريجيًا فى باقى العلوم.

(٤٢، ٤٣) مقدمة ابن خلدون (ص ٢٧٠ - ٢٧٩). راجع حديثه عن الحرب وإضافة العرب إلى أساليبها.

(٤٤) ما يرد تحت العنوان المذكور هو من اجتهادنا وتأملنا الطويل للأدب العربى ثم من قراءة الواقع العربى الذى عاصره الباحث وهذا ينطبق على البنود ٦، ٧ من هذه الدراسة.

(٤٥) من المفيد قراءة هذه الأبيات للمتنبى :

وإنما الناس بالملـــــوك وما  تفلح عرب ملوكها عجم
لا أدب عندهم ولا حـسب  ولا عـهـــود لهم ولا ذمم
فى كل أرض وطئتــــها أمم  ترعـى بعبـد كأنهم غنم

(الديوان : ص ٥٩)

(٤٦) تنقسم الحضارة العربية إلى قسمين : عقلى ونقلى ، وعلى أهمية العقل فقد كان دائمًا العنصر المتنحى وهذا يفسر سرية إخوان الصفا تجنبا للاضطهاد ، كما يفسر وقوف الفلاسفة العرب عند النقل والتوفيق . . إن القسم العقلى لم يتخل قط عن النقل كأساس للعقل ، والنص كأساس لإعمال العقل فى التأويل . المبادرات العقلية نادرة .

(٤٧) إن أقرب الأمثلة هى حرب الخليج ، لقد كان الطرف العراقى فى حالة تلق لمفاجآت طول الوقت ، حتى أن إدراكه لما يحدث كان يتأخر كثيرا . . والنتيجة أكبر من مأساة .

(٤٨) أفضل الأمثلة لنقل الاتجاه الحداثى فى الأدب فهو ينقل تيارا انتهى أمره فى أوربا فى الأربعينات ، وقد بدأ فى الظهور فى أمريكا فى الستينات فى الأغنية والموسيقى . إن استعمال المصطلح الآن يحدث اضطرابا حديثا بين «الحداثة» فى إشارة للعصر الحديث وبينها كتيار أدبى معين .

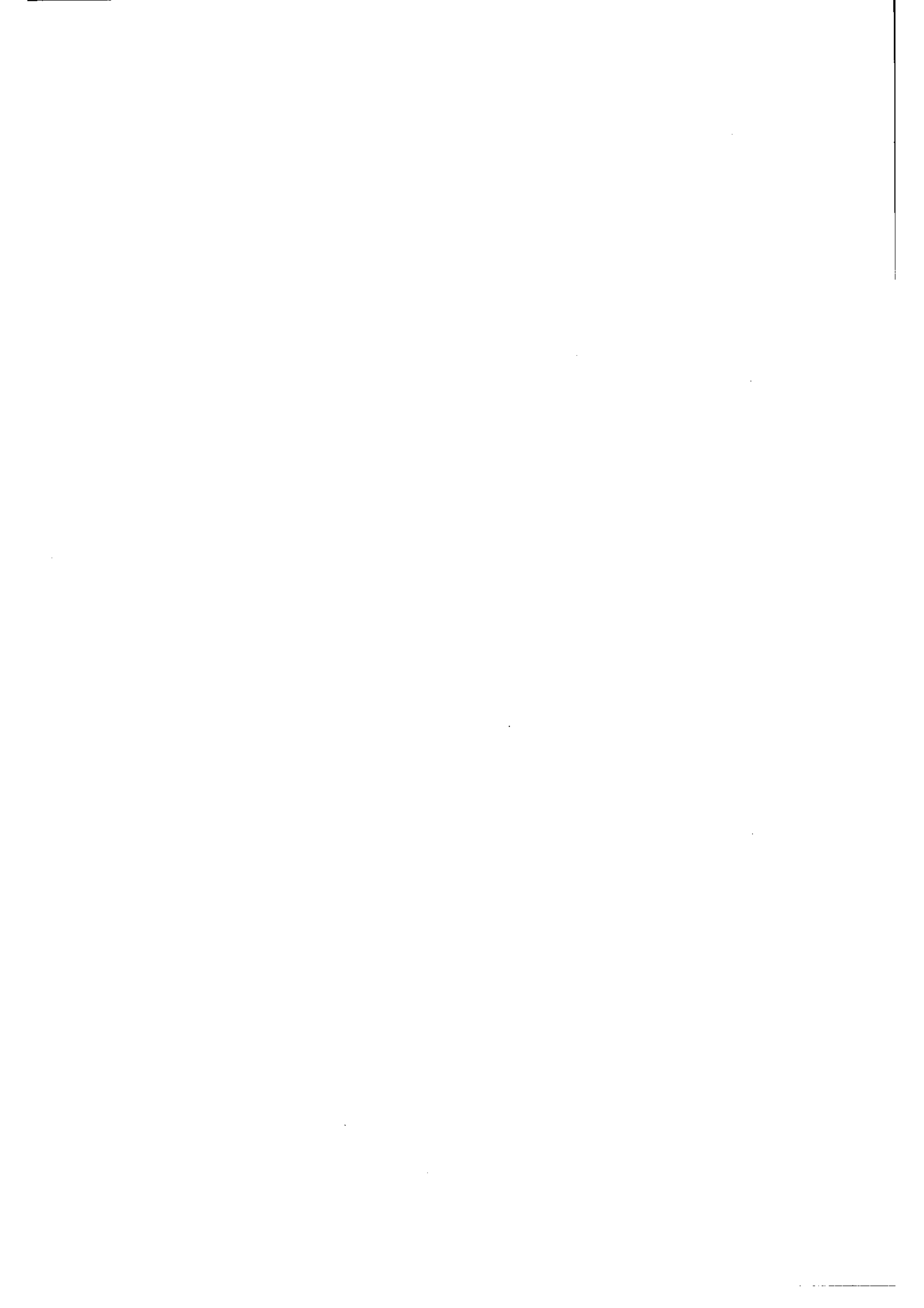
(٤٩) انعدام الولاء للكبير وللشيخ يمثل انهيار قيم نمط الارتجال دون زوال النمط ففقد قيمه الأخلاقية فى صورته المثلى فى العصور الوسطى والشيخ نفسه إذا أحس بتفوق التلميذ وتقدمه فى معرفة أسرار المهنة يقصيه وقد يقضى عليه إذا عرف أن لديه روحًا ابتكارية (قصة زرياب وتكررها) .

(٥٠) «لأنى وجدت فى مكرهن كتبا بالروايات وبكيدهن وردت الآيات» ألف ليلة ج١ ص ٢٥٤ . (طبعة المكتبة الحديثة للطباعة والنشر - بيروت) .

(٥١) اليقين هو إعجاز القرآن كنص منزل من عند الله تعالى على رسوله ﷺ ، ولكن معجزة القرآن فى محتواه وليس فى لغته لأن الإسلام دين عالمى جاء لكل الأجناس والأعراق وأصحاب مختلف اللغات ، وكثير من الشعوب إسلامية غير عربية مؤمن بإعجاز القرآن وقداسته دون ربط ذلك بلغته وتاريخ هذا النص وتأثيره بكل اللغات التى ترجم إليها ينفى لغوية الإعجاز ، لكنه لا ينفى سمو اللغة القرآنية وتفوقها على كل استخدام آخر للعربية .

(٥٢) القرآن الكريم جزء من الواقع اليومى للمتحدثين بالعربية، فهم يرددونه فى الصلاة ويستمعون إليه فى كل مكان، ولاشك أن لغة القرآن تتدخل فى إعطاء كل لهجة شكلها، ودراسة التطور اللغوى ستجد أن النص القرآنى هو العامل المشترك بين كل اللهجات فى العصر الواحد وبينها فى مختلف العصور إنه عصب اللغة العربية وسبب خلودها.

(٥٣) استخدام الفعل الماضى فى القرآن الكريم للدلالة على إطلاق الزمان أمر مفهوم فالله تعالى هو المطلق وهو القديم أما استخدام الفعل خارج نطاق النص المقدس فى مواضيع لا تتصل بالدين فهو أمر له دلالة تتجاوز مفهوم الاستخدام اللغوى إلى التعبير عن رؤية للعالم ترى أن الأزلية والأبدية مترادفان.



# فهرست

دار النصر للطباعة الإسلامية
٢ - شارع نشاطى شبرا القاهرة
الرقم البريدى ـــ ١١٢٣١